تطور الفكر والحركة في علاقة المعارضة بالسلطة زمن الخلفاء الراشدين

دكتور/ حمدي مصطفى خليل شاهين

أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مقدمة:

بالرغم من كثرة ما كتب عن تاريخ صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين فإن تناول ظاهرة المعارضة وعلاقتها بالسلطة الحاكمة في ذلك العصر من منظور سياسي تاريخي تحليلي؛ ومن زاوية التحولات الفكرية والحركية التي تعرضت لها؛ ما زال يحتاج إلى إضافة وتعمق، وبخاصة في أيامنا هذه التي يكثر فيها الحديث عن نماذج الدولة الدينية والدولة المدنية ومدى قرب ذلك وابتعاده عن السوابق التاريخية الإسلامية. وسوابق التاريخ عندنا تنبئ عن وجود هذه المعارضة وتناميها وتطورها، وانفتاح الحكومات الإسلامية عليها، طالما ظلت قائمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في منحى سلمي، أما حين تتحول إلى معارضة مسلحة فكانت المواجهة معها تستدعي ردود أفعال عنيفة يتحرك أصحابها فيها بدافع حب البقاء، ومن الطبيعي في هذه الفترة موضع البحث –قريبة العهد بالنبوة – أن نجد شعارات المعارضة ومؤسسة الخلافة معًا تنطلق من مرجعيات إسلامية تعلي شارات التدين والورع، غير أن المعارضة في أحيان أخرى جاءت من منطلقات مناهضة لمنطق الجماعة المسلمة وشريعتها، كما هو الحال في وقائع حروب الردة مثلاً، وفي كل الحالات كانت – كظاهرة سياسية اجتماعية – تتعرض لتحولات في أسسها الفكرية ومنطلقاتها الحركية والتنظيمية، تستلزم التأمل والدرس.

ويأتي هذا البحث في تمهيد يتناول عوامل ظهور المعارضة السياسية في الدولة الإسلامية، ثم فصلين: يتحدث أولهما عن المعارضة في خلافة أبي بكر وعمر، ويتناول كلا منهما في مبحث مستقل، بينما يأتي الفصل الثاني في مبحثين أيضًا، ويتناول المعارضة في خلافة عثمان وعلي. ثم تأتي خاتمة البحث لتجمل نتائجه على نحو أكثر تركيزًا.

❊ ❊ ❊

تمهيد

عوامل ظهور المعارضة السياسية في الدولة الإسلامية

تضافرت مجموعة من العوامل – منذ وقت مبكر من عمر الدولة الإسلامية – لتعزز من إمكانات ظهور معارضة سياسية ترتكز على ثوابت إسلامية وإنسانية، ولتجعل من هذه المعارضة إحدى العلامات البارزة – بل المكونات الأصيلة – للنظام السياسي الإسلامي، وأبرز تلك العوامل هي:

١- إعلاء قيمة الحرية الإنسانية في الإسلام، والحق في إبداء الرأي، وإن كان مخالفًا، والتعبير عنه وفق ضوابط السياسة الشرعية الإسلامية هو إحدى تجليات هذه الحرية التي قررها الإسلام واحتفى بها[١].

٢- فريضة الشورى[٢] بما تستلزمه ممارستها من تعارض الآراء ودفاع أصحابها عنها، وممارسة الشورى في الإسلام لا تعد فحسب آلية من آليات العمل السياسي، فهي عبادة واجبة[٣]، وخلق أصيل اجتماعي وفردي[٤].

---

[١] قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (سورة الإسراء من الآية ٧٠)، وذلك بغض النظر عن جنسه ومعتقده الديني ووضعيته الاجتماعية، وقد عبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن ذلك أصدق تعبير حين انتصر لقبطي من أهل مصر من ابن أميرها القرشي المسلم عمرو بن العاص وقال: "أيا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"(ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ١٣٠)، بل إن بعض علماء الإسلام جعل "الحرية" في مقام "الحياة" و"الرق" بمنزلة "الموت"(انظر النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ١٨٩، د. محمد عمارة: الإسلام وضرورة التغيير ص ١٧٧، وله أيضًا: الإسلام وحقوق الإنسان ص ٧-١٧)

[٢] وقد قررها الله تعالى في مثل قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ سورة آل عمران من الآية ١٥٩

[٣] عظّم القرآن شأنها فذكرها بين الصلاة والزكاة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ سورة الشورى الآية ٣٨

[٤] هي خلق للمسلم في ممارساته العامة وفي حياته الأسرية الخاصة، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ سورة البقرة من الآية ٢٣٣

٣- تشريع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير الغليظ من تركه[١]، مما يجعل معارضة الأخطاء السياسية ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، بل فريضة إلهية وتكليفًا دينيًا، فالمعارضة السياسية في جوهرها ليست سوى إنكار المنكر السياسي، وهو فريضة على المسلمين أفرادًا وجماعات ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[٢]، مما يفتح الباب أمام شرعية تنظيم هذه المعارضة في مسلك جماعي[٣].

٤-وهذه المعارضة ليست مجرد تسجيل مواقف، وإنما هي تغيير يقدم البدائل وفق أساليب متدرجة، كما قال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٤]، مما يعد دعوة لكل الأمة إلى المشاركة في العمل العام، دون عذر لمتخلف وسلبي بحجة ضعف أو انعدام القدرة[٥].

٥- الإقرار الواقعي بمشروعية التعددية الاجتماعية والسياسية في الدولة الإسلامية منذ بداياتها. مما أفسح المجال لتعدد الرؤى والمواقف بحسب تعدد القناعات والمصالح الصادرة عنها والممثلة لها. فمنذ وقت مبكر من عمر دولة الإسلام نجد مصطلحات تعبر عن بنى اجتماعية وسياسية متعددة مثل: «المهاجرين

---

(١) قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ سورة المائدة ٧٨-٧٩

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٤

(٣) راجع د. محمد عمارة: الإسلام وحقوق الإنسان ٨٧-١٠١

(٤) مسلم: الصحيح ١/ ٦٩، ابن ماجة: السنن ٢/ ١٣٣٠، أحمد: المسند ٣/ ١٠، ٤٩

(٥) راجع د. محمد عمارة: الإسلام وضرورة التغيير ١٧٨-١٧٩، وانظر ص ١٧٧.

الأولين»، «السابقين إلى الإسلام»، «النقباء»، «البدريين». كما نجد «أصحاب الصُفَّة» من فقراء المسلمين، فضلاً عن جماعات «المنافقين»، و«المرتدين». وقد كان لكل من هذه الجماعات آراؤها ومواقفها المؤيدة للسلطة الحاكمة أو المعارضة لها. وقد شهدت الدولة الإسلامية مزيدًا من التطور الفكري والعملي لهذه التجمعات وغيرها بمضي الزمن.

٦- ممارسات النبي ﷺ في مجال للشورى، ونزوله عند مقتضاها كما حدث في مواطن متعددة تعامل المسلمون فيها مع النبي من منطلق أنه إمام وحاكم[١]، وفي غير مواضع التشريع والوحي، وتعاملت بانفتاح سياسي مع جماعات الوثنيين التي وجدت بالمدينة عقيب الهجرة، وكذا جماعات اليهود، فضلاً عن ممارسات طويلة مع المنافقين، كانت فيها هذه الجماعات تمثل بؤر معارضة خفية حينًا وظاهرة في أحيان كثيرة[٢].

٧- نظرة الخلفاء الراشدين إلى الحكم على أنه تكليف وابتلاء، وليس تشريفًا واستعلاء، مما جعلهم أبعد الحاكمين عن الجبرية والعسف، وأعظمهم نفورًا من الاستبداد بالرأي، ورغبة في إشراك الرعية في تحمل نصيبهم من المسئولية في المشاركة السياسية، ومعارضتهم إن ظنوا فيهم خطأ أو ابتعادًا عن الجادة، ولقد قال أبو بكر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة :«إني وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني» [٣]، وقال عمر أول ما استخلف:«إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم بعد صاحبيَّ»[٤].

---

[١] راجع رأي ابن القيم في التفريق بين النظر للرسولصلى الله عليه وسلم كحاكم ونبي وقاض ومفتٍ (زاد المعاد ٢/ ٢٨٠)، ومن هذه المواطن تعيين موضع نزول جيش المسلمين يوم بدر، والموقف من أسرى المشركين فيها، أو الخروج لحرب المشركين خارج المدينة يوم أحد، أو حفر الخندق في غزوة الأحزاب، أو توزيع غنائم حنين، وغيرها.

[٢] راجع د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة ٢٦٣- ٣٢١

[٣] ابن هشام: السيرة النبوية، ٤/ ٢٣٢، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢١٠، السيوطي: تاريخ الخلفاء ٨٢

[٤] ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ١٩٦

٨- طبيعة المجتمع العربي الذي ظهر فيه الإسلام، حيث كان الإنسان العربي - الذي تلقى الإسلام أولاً وتفاعل معه وقام بحمله والدعوة إليه - ذا طبيعة مفعمة بالإحساس بالذات، والميل إلى الفخر والشجاعة، وكثير من مدونات الشعر والنثر العربي في الجاهلية - القريبة زمنًا من الإسلام - تفيض بالفخر والأنفة. وزادت العصبية للقبيلة - وهي إحدى أبرز ملامح المجتمع العربي قبل الإسلام - من تلك النزعة الاستقلالية التي ترفض الخضوع للسلطة المركزية، أو تبحث عن دور بارز في ظلها، مما هيأ السبيل إلى بروز الآراء المعارضة والمواقف المخالفة. وفي مجتمع مثل ذلك يصعب الاستبداد بالرأي أو التعامل بالقهر دون حدوث نتائج وخيمة.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

المعارضة في خلافة أبي بكر وعمر

توفي النبي ﷺ ولم يكن قد عهد لأحد بخلافته[1]، فواجه أصحابه حالة الفراغ السياسي الأولى في تاريخهم بحكمة وحزم، وبعد مؤتمر شوري عقدوه في سقيفة بني ساعدة[2] استخلف أبو بكر في اليوم الذي توفي فيه ﷺ، ليبدأ عصر الخلفاء الراشدين (١١-٤١هـ).

ويأتي هذا الفصل في مبحثين، يتحدث أولهما عن المعارضة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ويتناول الثاني المعارضة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سواء ما التزم منها بالإسلام مرجعًا، أو ما صدر عن رؤى تناهض الإسلام ونظمه.

---

(١) هذا هو الصحيح، وما قيل عن عهد صريح لأبي بكر أو عليّ هو زعم ينقصه الدليل القطعي، إذ ما يُحتَج به في ذلك هي أحاديث ظنية الدلالة، أو أحاديث وردت في فضائل كل منهما، وليست في صريح الاستخلاف (راجع حمدي شاهين: دراسات في عصر الخلفاء الراشدين ١٤-٢٦)

(٢) هي ظلة لبني ساعدة من الخزرج، كانت تقع في الشمال الغربي من المسجد النبوي قريبًا منه (راجع: محمد حسن شراب: المدينة النبوية ٢/ ١٧)

المبحث الأول

المعارضة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وتعددت صور المعارضة التي شهدها عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بين معارضة تستند في منطلقاتها وممارساتها إلى مرجعية إسلامية، وقد اتسع لها النظام السياسي، وتفهم دوافعها، وتعايش معها، كما سنرى، وأخرى مرجعيتها غير إسلامية، تتحرك خارج إطار الجماعة السياسية المسلمة، وتنطلق من غير قناعاته وأصولها، وتتغيا أهدافًا وغايات مناقضة لأهدافها وغاياتها، وقد واجهتها الخلافة بقوة وحسم، معتبرة إياها خطرًا على الدين والدولة معًا، كما سنرى.

أولاً: معارضة لها مرجعية إسلامية:

١- استحقاق الخلافة وآليات الاستخلاف:

انعقدت بيعة أبي بكر لما بايعه جمهور الصحابة الذين حضروا اجتماع سقيفة بني ساعدة بيعة خاصة، ثم بايعه جمهور الأمة الذي اجتمع في اليوم التالي البيعة العامة في المسجد الجامع، وكان الأنصار اجتمعوا لمبايعة زعيم الخزرج سعد بن عبادة بالخلافة في السقيفة، فلما حضر إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة دارت مناقشات جديدة أسفرت عن مبايعة أبي بكر، بعد خلاف وجدل بين المهاجرين والأنصار.

كان الخلاف في شورى السقيفة دائرًا حول من له الأهلية للخلافة: المهاجرين من قريش، أم الأنصار، و كان التحرك السريع لأنصار وتداعيهم للاجتماع دون دعوة المهاجرين يحمل في طياته دلائل تخوفهم الحقيقي من المستقبل؛ في ظل غياب نص جلي يحسم الاختلاف حول شخص الخليفة أو جماعته وعصبيته[1].

---

(١) غياب النص الجلي هو الأرجح رغم وجود تلميحات توصي باستخلاف أبي بكر ودعاوى أخرى بالنص على غيره (راجع النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٥٤- ١٥٥، الشهرستاني: نهاية الإقدام في علم الكلام ص ٤٨١، ابن كثير: البداية والنهاية ٣/ ٣١٨، ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٧/ ٣٧، ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ١/ ٥٢٤،٥٢٥)

وانتهت المناقشات بين المجتمعين آنذاك إلى انتصار الرأي القائل بأحقية المهاجرين القرشيين بالخلافة نظرًا لمكانتهم بين العرب الذين يسلمون لهم بالسبق والفضل، ويلاحظ هنا أن أحدًا - على الأرجح - لم يحتج بالحديث النبوي :«الأئمة من قريش»[1]، ربما لعدم ذيوعه بين الصحابة آنذاك، وارتكز الحجاج على بيان مدى القبول السياسي لكل من الطرفين المتنافسين عند العرب، بعدما سلم كل طرف بالفضيلة الدينية للآخر، وكانت كلمة أبي بكر معبرة عن ذلك حيث قال في خطبته: «... ولن يُعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا»[2]، وقوله في رواية أخرى : «إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش»[3]، وقوله: «ولن تصلح العرب إلا برجل من قريش، فالناس لقريش تبع»[4] وذلك ما أكده عمر بقوله لهم: «والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم، ووليّ أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين»[5].

الممتنعون عن بيعة أبي بكر:

وامتنع عن هذه البيعة جماعة هم: سعد بن عبادة سيد الخزرج وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعه جماعة من بني عبد مناف، ولم يرقَ امتناعهم إلى حد المخالفة والشقاق.

---

[1] رواه أحمد: المسند ٣/ ١٢٩ـ١٨٣، الحاكم: المستدرك ٤/ ٨٥، النسائي: السنن ٣/ ٤٦٧، وذكر بعضهم أن المهاجرين احتجوا بحديث " الأئمة من قريش" ، ونفى بعضهم ذلك ، إلا أن يكون قصد المثبتين أنهم احتجوا بمعنى الحديث لا نصه، وقد قال ابن حجر عن هذا الحديث: "ولم يقع في هذه القصة (يعني قصة السقيفة) إلا بمعناه، وقد جمعت طرقه من نحو أربعين صحابيًا ؛ لما بلغني أن بعض فضلاء العصر ذكر أنه لم يُروَ إلا عن أبي بكر الصديق" (فتح الباري ٧/ ٩٣).

[2] البخاري: الصحيح، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حديث رقم ٦٨٣٠

[3] ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٩٣

[4] في رواية للزهري، راجع السابق ٧/ ٣٥

[5] الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٢٠

وقد امتنع سعد بن عبادة - على الأرجح - عن البيعة، وفق رواية البخاري وغيره، وهي أصح ما في هذا الباب[1]، فوجد في نفسه، وأبى أن يبايع في اجتماع السقيفة أو بعدها، بل أبى البيعة طيلة خلافة أبي بكر ثم عمر، وذهب إلى الشام وظل هناك حتى مات، وإن كانت روايات أخرى حاولت أن تبرئ بيعة أبي بكر مما ظنته نقيصة بالاختلاف السياسي عليها، فزعموا أن سعدًا بايع طائعًا كما في رواية مرسلة للإمام أحمد[2]، لا تصمد عند النقد أمام ما ورد في الصحيح، أو أنه بايع مكرهًا كما في رواية لسيف بن عمر[3]، وهو ما لا يجوز، ولا يحتمل أن يحدث لرجل في مكانة سعد وعزته في قومه.

ومن ذلك يتضح أن امتناع سعد بن عبادة عن البيعة كان أمرًا تمتزج فيه الدوافع العامة - حيث كان يرى أحقية الأنصار بتولي خلافة المسلمين - وهو كبيرهم الذي همّوا باستخلافه، فأبى مبايعة غيره - والدوافع الشخصية حيث تجاوزه اختيار المجتمعين إلى أبي بكر بعد ما كانوا أجمعوا عليه، "فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر، ولكنه مع هذا رضي الله عنه لم يعارض، ولم يدفع حقًا، ولا أعان على باطل"[4].

علي بن أبي طالب والخلاف حول آلية البيعة:

وتنص بعض الروايات الضعيفة على أن علي بن أبي طالب بايع مبكرًا ضمن أوائل من بايعوا أبا بكر رضي الله عنه[5]، إلا أن روايات الحديث والتاريخ الصحيحة تؤكد

---

(1) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم: ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، كتاب الحدود، حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر: أحمد: المسند ١/ ٥٥، ٥٦، وابن حبان: الثقات ٢/ ١٥٢-١٥٦، صحيح ابن حبان ٢/ ١٤٨-١٥١

(2) المسند: ١/ ٥ حديث رقم ١٨، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٣/ ٢٠٠٢-٢٠٣.

(3) الطبري: السابق ٢/ ٢٢٣.

(4) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ١/ ٥٣٦

(5) الطبري: السابق ٣/ ٢٠٧.

أن عليًا لم يبايع حتى توفيت زوجته فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر من اجتماع السقيفة، فبايع عندها هو ومن كان قد امتنع معه من بني هاشم وغيرهم[1].

وقد عبر عليّ عن حجته في التخلف عن البيعة لما أرسل إلى الخليفة أن يأتيه في بيته؛ بعد موت فاطمة رضي الله عنها، فجاءه فتشهد علي وقال: "إنا قد عرفنا فضلك وما أعطاك الله، ولم نَنْفَسْ عليك خيرًا ساقه الله إليك، ولكنك استبددت علينا بالأمر، وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله نصيبًا"، حتى فاضت عينا أبي بكر، وقال: "والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي"، فقال علي موعدك العشية للبيعة، ثم جاء فبايعه في المسجد أمام جمهور المسلمين[2].

لقد أوضح علي رضي الله عنه أنه لم يمتنع عن بيعة الخليفة حسدًا له، ولكن لاستبداده دونه مع آخرين بأمر الشورى والاستخلاف – فيما يرى – ويمكن أن نتفهم حساسية ذلك الأمر عنده إذ تذكرنا الحوار الذي دار بين عليّ والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قبيل وفاة النبي ﷺ حيث نصح العباس عليًا أن يسأل النبي ﷺ إن كان لهم – أي قرابته – من الأمر شيء، فأبى عليّ أن يسأله مخافة أن يمنعها عنهم فيرى الناس في ذلك منعًا عامًا، فيحرموهم حقًا هو للمسلمين كلهم سواء إذا توافرت فيهم شروطه، فليس بمستنكر إذن أن يكون عليّ وبعض بني هاشم يظنون أنه قد يكون لهم حق في خلافة النبي ﷺ، وأن ابتعادهم عن الشورى يوم السقيفة أفقدهم إمكانية الترشح والاختيار.

---

(1) البخاري: السابق كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، كتاب الفرائض حديث رقم ٦٧٢٥، ٦٧٢٦، الطبري: السابق ٣/ ٢٠٨، وزاد اليعقوبي في تاريخه ٢/ ١٢٣-١٢٤ أسماء أخرى إلى الممتنعين عن البيعة.

(٢) البخاري: الصحيح، كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، وانظر كتاب الفرائض حديث ٦٧٢٥

لقد كان الاختلاف على الجانب الإجرائي للبيعة وما ترتب عليه هو السمت الظاهر لاعتراض علي رضي الله عنه، وهو اعتراض لم ينكره أبو بكر ولا عمر، بل صرح عمر فيما بعد أن بيعة أبي بكر كانت فلتة[1]، وأنها لا يصح أن تتخذ نموذجًا نهائيًا للبيعة، إذ يلزم مشاورة جميع أهل الحل والعقد، ولا يصح أن ينفرد بها أحدهم أو بعضهم، لكن ظروف بيعة أبي بكر التي تمت على عجل بعد وفاة النبي ﷺ ومسارعة الأنصار للاجتماع لبيعة أحدهم هي التي اضطرتهم لذلك الأمر على حد وصف عمر بن الخطاب حين قال: "فوالله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر؛ خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا؛ فإمّا بايعناهم على ما لا نرضى؛ وإما نخالفهم فيكون فسادٌ"[2].

وحديث علي عن الحق الذي كان يظنه لهم يحتمل أيضًا أنه قد راعى رأي زوجته فاطمة رضي الله عنها في أن لها حقًا في ميراث أبيها ﷺ وأن أبا بكر منعها إياه، محتجًا بالحديث الذي سمعه من النبي ﷺ: "لا نورث، ما تركنا صدقة، على نحو ما سيأتي بيانه قريبًا.

وقد كان موقف علي رضي الله عنه نبيلاً إذ لم يشنّع على أبي بكر رضي الله عنه، ولم يسعَ إلى الغض من أمر بيعته، بل اكتفى بمجرد الامتناع عن البيعة، وأسهم في فعاليات الدولة كأحد الرعية الذين تجب طاعتهم لولي الأمر الذي انعقدت بيعته برضا جمهور المسلمين.

موقف حكومة أبي بكر من الممتنعين عن البيعة:

جاء موقف أبي بكر رضي الله عنه من هذه المعارضة منسجمًا مع مبادئ الإسلام الذي يجل حرية الرأي والموقف السياسي، فلم يتخذ موقفًا عنيفًا تجاه أي من

---

[1] الفلتة: الفجأة، (ابن سلام: غريب الحديث ٣/ ٣٥٦، ابن منظور: لسان العرب ٢/ ٦٧)، وتطلق أيضًا على كل شيء فعل أو قول جاء على غير رويّة وتثبّت (ابن قتيبة: غريب الحديث ١/ ٥٠٦، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣/ ٤٦٧).

[2] البخاري: الصحيح، كتاب الحدود، حديث رقم ٦٨٣٠، وانظر أحمد: المسند ١/ ٥٥، ٥٦

المعارضين، ولم يعمد إلى إكراه أحد على بيعته، وما يروى عما جرى بين عمر بن الخطاب - وزير أبي بكر وأكبر داعية إلى استخلافه - وسعد بن عبادة من حدة واشتجار لا يعدو أن يكون انفعالاً وقتيًا سرعان ما انتهى[1]، أما ما يزعمه بعض الرواة من ضغوط مارسها أبو بكر وعمر على عليّ وأنصاره الممتنعين عن بيعته مثل قولهم إنهم تهجموا على بيت فاطمة رضي الله عنها وقد اجتمع هؤلاء فيه ليجبروهم على البيعة؛ فهو زعم مردود لضعف تلك الروايات وتشيُّع رواتها، وبعضهم موسوم بالكذب[2]، ولم يكن ذلك مما يتفق مع سجية أبي بكر ولينه ورحمته، ولا مع خلائق هؤلاء الرجال وطبيعة ذلك العصر، ولا مع حرج الموقف السياسي الذي آلت إليه الأمة بعد وفاة نبيّها ﷺ وظهور المرتدين وتهديدات فارس والروم. ولم يكن أبو بكر مضطرًا إليه وقد انعقدت إمامته، ولا يلزم لها الإجماع الذي لا يتصور حدوثه في عصر من العصور، فما زال الناس مختلفين كما خلقهم ربهم في مشاربهم ورؤاهم[3].

ومن الجدير بالملاحظة هنا أن المسلمين قرروا منذ وقت مبكر **حق المعارضة السياسية في الاحتفاظ بآرائها، والثبات عليها**، وإن يئس أصحابها من إمكان الاستجابة لهم، وموقف الخلافة زمن أبي بكر ثم عمر من امتناع سعد بن عبادة عن بيعة كل منهما، وثباته على ذلك حتى موته، دليل على ذلك، **وهذا الموقف مبدئي**، وليس عرضيًا مؤقتًا ولا مصلحيًا، بل سنجد أمثلة متعددة عليه طوال ذلك العصر.

---

(1) راجع الطبري: السابق ٣/ ٢٢١-٢٢٣، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ١٩٣.

(2) راجع اليعقوبي: السابق ٣/ ٣/ ١٢٦، المسعودي: مروج الذهب: ٢/ ٣٠٨، ابن قتيبة: "ينسب إليه" الإمامة من السياسة ١٢-١٤، الطبري: السابق ٣/ ٤٢٩-٤٣١، الطبراني: المعجم الكبير ١/ ٦٢.

(3) راجع في عدم لزوم الإجماع في البيعة أو تصور حدوثه: الجاحظ: العثمانية ١٩٥، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٣/ ٦، القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل ج٢٠ ق١ صـ٢٨١، ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٨/ ٣٣٥، المحب الطبري: الرياض النضرة ٢/ ٢١٦، الجويني: غياث الأمم ٦٧.

٢- معارضة بعض اجتهادات أبي بكر وسياساته:

ومن ذلك اعتراض فاطمة رضي الله عنها على رفضه توريثها ما تركه أبوها رسول الله ﷺ بالمدينة وخيبر وفدك[١]؛ لما سمعه من النبي ﷺ حيث قال: "لا نورث، ما تركنا صدقة"، ولم تكن معارضتها تكذيبًا لروايته، فالحديث رواه جماعة آخرون، ولكن تأويلاً له[٢]، فغضبت من أبي بكر وهجرته، فلم تكلمه حتى توفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر[٣]، وقد روي أن أبا بكر عادها في مرضها وترضاها حتى رضيت[٤].

وبالرغم من أن موقفه ذاك وموقف فاطمة المعارض له هو أدخل في باب الاجتهاد الفقهي منه في الاجتهاد السياسي إلا أن تداعيات ذلك الموقف كان لها تأثيرها السياسي، إذ ربما تأثر بغضبها زوجها عليّ ومن وافقه من بني هاشم، وقد استمر امتناعهم عن البيعة لأبي بكر حتى توفيت رضي الله عنها، كما مر بنا.

ومن ذلك معارضة بعض الصحابة لأبي بكر في إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى مشارف الشام؛ في ذات الوقت الذي كان يتهدد المسلمين بالمدينة الخطر من المرتدين المحدقين بها، وآثروا إبقاء الجيش بالمدينة للدفاع عنها، بينما أصر أبو بكر على إنفاذه

---

(١) فدك: بلد بينها وبين المدينة ثلاث مراحل (ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/ ٢٣٠)

(٢) وكأنها اعتقدت تخصيص العموم في قوله: "لا نورث"، ورأت أن منافع ما خلّفه من أرض أو عقار لا يمتنع أن تورث عنه، وتمسك أبو بكر بالعموم، واختلفا في أمر محتمل للتأويل" (ابن حجر: السابق والصفحة)

(٣) البخاري السابق كتاب المغازي حديث رقم ٤٢٤٠، ٤٢٤١، وللعلماء اجتهادات في تفسير ذلك الهجر من فاطمة رضي الله عنها، وأنه ليس من ذلك الهجر الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم (ابن حجر: السابق ٦/ ٢٢٩-٢٣٠)

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨/ ٣٠-٣١، البيهقي: السنن الكبرى ٦/ ٣٠١، ابن حجر: السابق ٦/ ٢٣٠ حيث قال: "وأخلق بالأمر أن يكون كذلك لما عُلم من وفور عقلها ودينها عليها السلام".

اتباعًا لأمر الرسول ﷺ قبل موته، واتساقًا مع تعهده بأن يكون متبعًا وليس مبتدعًا[1]، فلما رأوا ذلك منه أشاروا عليه أن يولي على الجيش قائدًا مجربًا من كبار الصحابة غير أسامة الشاب، وكان عمر موفدهم إلى الخليفة، فأنكر عليه الصديق إنكارًا شديدًا وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أعزله[2]؟؟؟.

ومن ذلك معارضة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حرب مانعي الزكاة الذين ظلوا يدَّعون الإسلام، واحتج أبو بكر بقول النبي ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وقال: والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[3]، وسوف نعرض لمزيد من أدلة صواب رأي الخليفة حين الحديث عن موقفه من حركة الردة.

وأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر بجمع القرآن في كتاب واحد مخافة أن يفنى حفاظه، بعدما استشهد كثير منهم في حرب مسيلمة الكذاب، فأبى أن يفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ، فلم يزل عمر يراجعه فيه حتى شرح الله لذلك صدره، فرأى مثل رأيه[4]. وهكذا حفظ الله كتابه على يد أبي بكر رغم عظيم تحرجه في بداية الأمر من أن يفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ، اتباعًا لمنهجه الأصيل: " إنما أنا متبع ولست

---

(1) قال في خطبة له أول خلافته:"إنما أنا متبع، ولست بمبتدع" (الطبري: السابق ٣/ ٢٢٥)

(2) الطبري: السابق ٣/ ٢٢٦، ابن الأثير: الكامل ٢/ ١٩٩

(3) البخاري: الصحيح، كتاب الزكاة، حديث ١٣٣٥، مسلم: الصحيح، كتاب الإيمان، حديث رقم ٣٢، وفي بعض رويات البخاري:" حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة"، السابق، كتاب الإيمان، باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة، حديث رقم ١٣٣٥، ٢٧٨٦

(4) راجع البخاري: الصحيح كتاب تفسير القرآن، كتاب الأحكام، كتاب فضائل القرآن، البيهقي: السنن الكبرى ٢/ ٤٠، الترمذي: السنن ٥/ ٢٨٣، أبو يعلى: المسند ١/ ٦٦

بمبتدع"، ذلك أن حقيقة الاتباع لا تعني إلغاء الاجتهاد فيما لا نص فيه، وفيما تقتضيه المصالح المتجددة للأمة.

وقد عارض عمر الخليفة في استمرار خالد بن الوليد في قيادة الجيوش الإسلامية في الردة والفتوح، وكان عمر يرى أن في سيف خالد رهقًا – أي خفة وتسرعًا – ويراه متعجلاً في سفك دماء الخصوم في حروبه، لكن أبا بكر لم يعزل خالدًا، وقال: لا أشيم سيفًا سله الله على الكافرين، ودفع دية مالك بن نويرة تحوطًا، واعتذر عن خالد بأنه تأول فأخطأ[1].

والملاحظ هنا أن عمر لم يغير رأيه في خالد، حتى آلت الخلافة إليه فكان أول ما فعله أن عزله عن القيادة العامة للجيش. والحق أن رأي عمر في سياسة خالد في حروبه يتصل برؤية عمر الإدارية في تسيير أمور الدولة، إذ كان في خلافته شديد المركزية، بخلاف أبي بكر الذي كان يؤثر اللين، ويكثر من تفويض المسئولية لولاته، وبخاصة في حالات الفتح العسكري وتأسيس الولايات، مع طول المسافات بين أطراف الدولة وقلبها، وتقلب الأحوال على نحو سريع، يتعذر معه الرجوع إلى القيادة السياسية في كل حال. والذي يؤكد أن اعتراض عمر على القيادة العسكرية لخالد يتصل برؤيته السياسية مآخذه التي حاسب عليها خالدًا بعدما تولى الخلافة حين كان قائدًا عامًا للجيش، أو بعد عزله حين غدا قائدًا محليًا[2]، إذ أخذ عليه تصرفه في الأموال المغنومة، وإعطاءه منها بغير إذنه، ومبادرته إلى بعض الأعمال دون الرجوع

---

(١) تختلف الروايات حول حقيقة ردة مالك هذا، فبعضهم يزعم أنه أعلن إسلامه، وبعضهم يراه متلاعبًا مترددًا مخادعًا في أمر الدين والعقيدة (راجع الطبري: السابق ٣/ ٢٧٨-٢٨٠)

(٢) عزل عمر خالدًا عن القيادة العامة للجيوش بالشام أول توليه الخلافة سنة ١٣هـ ثم استبعده عن القيادة المحلية لما عزله عن ولاية قنسرين سنة ١٧هـ (الطبري: السابق ٣/ ٤٣٤-٤٣٥، ٤٣٧، ٤/ ٦٧-٦٨، محمود شيث خطاب: قادة فتح العراق والجزيرة ص١٢١).

إليه فيها[1]. هذا فضلاً عن حرص عمر على مثالية الفتح الإسلامي، وألا يُفتتن الجنود بانتصارات القائد العظيم.

ومن ذلك معارضة سياسته في العطاء حيث كان أبو بكر يسوِّي بين المسلمين في العطاء من بيت المال، لا يفرق بين حر وعبد، ولا بين رجل وامرأة، ولا بين سابق إلى الإسلام ومتأخر عنه[2]. وقال له عمر: تسوّي بين أصحاب بدر وسواهم من الناس؟ قال: "إنما الدنيا بلاغ، وخير البلاغ أوسعه، وإنما فضلهم في أجورهم" [3].

ولما توفي أبو بكر وتولى عمر الخلافة لم يطل التزامه بسنّة أبي بكر في العطاء؛ إذ انهالت أموال الغنائم وثمرات الفتح لتوجد واقعًا جديدًا يوجب التفكير فيه، وقد انتهت مشاورات عمر آنذاك إلى تدوين ديوان الجند ووضع سياسة مختلفة للعطاء؛ تقوم على المفاضلة بين الناس بحسب قرابتهم من النبي ﷺ وسابقتهم في الإسلام[4].

ومن ذلك أيضًا معارضة بعض الصحابة رغبة أبي بكر في أخريات حياته في استخلاف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليس انتقاصًا لشأنه وعظيم قدراته، بل تخوفًا من شدته وسطوته، تلك الشدة التي كان عمر معروفًا بها زمن النبي ﷺ وصاحبه، مع رقتهما وبالغ رحمتهما، فكيف يكون إن صارت الأمور إليه وليس ثمَّ رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ليخففا من سَوْرته وغضبه؟ وقد طمأن أبو بكر مخاوف هؤلاء النفر بقوله عن شدة عمر: ذلك لأنه يراني رقيقًا ولو أفضى إليه الأمر لترك كثير مما هو عليه[5].

---

(١) الطبري: السابق ٣/ ٢٧٦-٢٧٧، محمود شيت خطاب: السابق ١٣٨

(٢) ابن سعد: السابق ٣/ ٨٩

(٣) أحمد بن حنبل: الزهد ١٣٧، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٢٢

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٢٢٤-٢٢٧، الطبري: السابق ٣/ ٦١٤-٦١٥، أبو يوسف: الخراج ٤٢-٤٥

(٥) الطبري: السابق ٣/ ٤٢٨.

ملاحظات على هذه المعارضة:

كانت معظم حالات المعارضة معارضة فردية، وقد تتشكل في معارضة جماعية أحيانًا، وهذا التشكل لا يأتي نتيجة جهود المعارضين في الدعوة إلى أفكارهم والتحزب لها بقدر ما يكون نتيجة توافق جماعي تلقائي حولها، كما حدث في الموقف من قيادة أسامة بن زيد وبعث جيشه إلى الروم بعدما ارتد العرب المحيطون بالمدينة، وكما حدث في المشاورة حين العهد لعمر بالخلافة.

وقد يأخذ الخليفة برأيها مثل موافقته على جمع القرآن بعد تمنّع، أو يخالفها ولا يشعر بحرج في ذلك، إذ لم يشكل المعارضون أغلبية معتبرة، مثلما حدث في مسألة العهد لعمر بالخلافة، حيث كان جل الصحابة يوافقونه... وقد يخالفها لأنه يستند إلى نص شرعي - مثل منعه ميراث فاطمة وقراره بحرب مانعي الزكاة - أو تأويل لنص شرعي كطاعته أمر النبي ﷺ في إنفاذ بعث أسامة وإبقائه أميرًا عليه.

وهي معارضة وقتية غالبًا تنتهي بالإعلان عن موقفها وإبداء رأيها. وقد تنتهي باقتناع المعارض برأي الخليفة مثلما اقتنع عمر برأيه في وجوب حرب مانعي الزكاة، وقد يحتفظ المعارض بقناعاته حتى يتيسر له تنفيذها، فقد ظل عمر وفيًا لرأيه الذي أعلنه في ضرورة عزل خالد عن قيادة الجيش ووجوب عدم التسوية في العطاء، فغيّر من سياسة سلفه حين آل له الأمر من بعده، فعزل خالدًا، وغير منهج توزيع العطاء.

ومن نافلة القول بيان أنها ظلت معارضة سلمية، لم تتخذ أي وسيلة عنيفة للتعبير عن نفسها ورأيها، وهي بذلك متسقة مع مرجعيتها الإسلامية التي تجعلها تحرص على ممارسة الحق في المشاركة السياسية ونصح الحاكم وتقويم أدائه، وترى ذلك واجبًا شرعيًا، كما أنها تتأسس على احترام المبادئ الإسلامية، وتتغيا مصلحة الأمة وسلامتها. وكان مسلك الخليفة تجاهها أيضًا مما يؤكد هذه الحقوق وتلك المنطلقات والغايات. وهي بذلك تمتاز عن لون آخر من المعارضة لم تتخذ الإسلام مرجعًا لها، سيأتي الحديث عنها.

ثانيًا: معارضة ذات مرجعية غير إسلامية:

وقد تعرض أبو بكر رضي الله عنه أول توليه الخلافة إلى موقف عصيب هدد البناء السياسي الواحد للدولة الإسلامية؛ إذ ظهرت الردة، وفشت في جزيرة العرب، فلم يبرأ منها إلا المثلث الحضري: المدينة ومكة والطائف، وجماعات احتفظت بإسلامها في تلك الأنحاء التي تموج بالردة والفتنة.

وقد استخدم المؤرخون مصطلح "الردة" للدلالة على عدة حركات تأبى الالتزام بالإسلام نفسه دينًا، بادعاء النبوة واتباع المتنبئين، أو إنكار ركن من أركان الإسلام وهو الزكاة، أو تأبى الالتزام بالوحدة السياسية للدولة، وتتمرد على سلطان المدينة المنورة والسلطة المركزية فيها[1]. وتصنف حركات الردة عادة على أنها نوعان: حركات الردة الكاملة عن الإسلام بادعاء النبوة، وحركات تمتنع عن أداء الزكاة وإن ظل أصحابها يدعون الإسلام. ونستطيع أن نضيف إليهم نوعًا ثالثًا يتمثل في ثورة جماعات أخرى ظلت على وثنيتها القديمة، ولم تدخل أصلاً في الإسلام، فلما حدثت وفاة الرسول ﷺ وفشت حركة الردة اغتنمت الفرصة للثورة على المسلمين من أبناء قبائلهم، والقيادة السياسية الممثلة لهم، ويلاحظ أن المؤرخين القدامى تسببوا في لبس شديد حين أوردوا خبر إسلام بعض هذه القبائل وإيفاد ممثلين لها إلى المدينة ليعلنوا إسلامهم على أنه إسلام للقبيلة كلها، وكثير من وقائع حروب الردة تؤكد ذلك [2].

تشابك المضامين الدينية والاجتماعية والسياسية لحركة الردة:

تعد حركات الردة تمردًا من الناحية الدينية على دين الجماعة المسلمة، ويمكن تلمس أسباب ذلك في تأخر إسلام هذه القبائل التي ارتدت، إلى ما بعد فتح مكة في العامين التاسع والعاشر الهجريين، وضعف تمثّلها له وإيمانها به[3]. و من الناحية

---

[1] راجع ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٧٩، ابن حجر: السابق ١٢/ ٣٠٦.

[2] إلياس شوفاني: حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر ص ٤٣-٤٩

[3] وهذا ما أكدته مقولات تنسب إلى بعض زعماء الردة، مثل عيينة بن حصن (الطبري: السابق ٣/ ٢٦٠)

السياسية والاجتماعية ظلت الروح القبلية تحرك هذه التجمعات التي لم تأنس إلى الوحدة السياسية العامة للدولة الإسلامية، ولم ترتح إلى سلطانها الذي ظل إحساسها به خافتًا، فوجدت بعض تلك القبائل في وفاة النبي ﷺ فرصتها لتتحلل من أبرز مظاهر التبعية السياسية للمدينة وهي جباية الزكاة، ولم تكن تأثيرات الفرس بعيدة عن إذكاء ودعم بعض حركات الردة، وبخاصة في المواطن القريبة منها[1]. بينما نظر مدعو النبوة - في تعصب لقبائلهم - إلى أن وجود نبي من قريش قد بوّأها مكانة عليّة بين قبائل العرب، فباتت تطلب من الجميع طاعتها حتى بعد وفاة النبي ﷺ، فسرت في تلك القبائل دعوى التنبؤ بين زعمائها لتتبوأ قبائلهم الصدارة كما تبوأتها قريش، ورأوا أن المسألة كلها "مسألة كهانة وأسجاع، وقيادة وأتباع"[2]، وغطت العصبية القبلية البصائر إلى حين، حتى كان أحد أصحاب مسيلمة الكذاب المتنبئ في اليمامة يقول له: "أشهد أنك كذاب، وأن محمدًا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر"[3].

حركة الردة بين الدافعية الدينية والسياسية:

يرى بعض الدارسين أن كثيرًا من حركات الردة لا تعد ردة دينية بالمعنى الدقيق للكلمة، إذ لا تعدو أن تكون تمردًا سياسيًا على سلطة المدينة والخليفة الجديد، وأن الامتناع عن دفع الزكاة للمدينة هو مظهر لذلك التمرد[4]. في حين أدرك بعضهم أن المؤرخين المسلمين كانوا على حق عندما اعتبروا الردة حركة دينية، وأن المستشرقين أخطئوا عندما نظروا إلى الإسلام بمفهوم أوروبي، فالردة كانت حركة ابتعاد عن النظام الإسلامي، دينيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا، وعليه فهي ضد الإسلام[5]، **فالديني والسياسي فيه لا يمكن الفصل بينهما فصلاً كاملا بغير تعسف.**

---

(1) عباس محمود العقاد: عبقرية خالد ص ٦٣- ٦٥

(2) عباس محمود العقاد: السابق ص٦٢.

(3) الطبري: السابق ٣/ ٢٨٦.

(4) راجع إلياس شوفاني حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر ص١٠١ وما بعدها.

(5) السابق ص١٠٥.

وتصور أن هناك اختلافًا بين مدعي النبوة ومانعي الزكاة ليس جديدًا، فقد فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك، واستغرب من الخليفة أن يقاتل قومًا يعلنون شهادة الإسلام لامتناعهم عن الزكاة، وكان رد أبي بكر حاسمًا: "والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم على منعها"، وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال[1].

إن من جحد ركنًا من أركان الإسلام كمن جحد الإسلام كله، وإن فتح باب الترخص في ترك فريضة الزكاة سوف يفتح الباب لمزيد من التهاون في أركانه وفرائضه الأخرى، فكانت الزكاة أول هذه التكليفات التي استثقلتها قبائل العرب آنذاك، ولكنها قد لا تكون الأخيرة.

لقد اجتهد بعض علمائنا في تبرير موقف الخليفة من **زاوية السياسة الشرعية** الصرفة، بأنه إنما حارب مانعي الزكاة لأنهم نصبوا له الحرب، فعدهم "بغاة" خارجين عن طاعة الإمام[2]، غير أن ثمة فارقًا كبيرًا بين أحكام قتال البغاة - كما تقررها كتب الفقه - وواقع حرب مانعي الزكاة، فمن أمثلة قتال البغاة التي يسوقونها قتال عليّ رضي الله عنه طلحةَ والزبيرَ وعائشة في موقعة الجمل، وقتاله معاوية في موقعة صفين، حيث لم يُجِزْ غنيمة أموال المخالفين، ولا قتل جريحهم، ولا اتباع مدبرهم[3]، أما مانعو الزكاة فكان أبو بكر يغنم أموالهم ويقتل جريحهم ويتبع مدبرهم، ويطبق عليهم أحكام قتال المرتدين فعلاً، ولم يفرق في الواقع بين حربهم وحرب المتنبئين

---

[1] ابن حجر: السابق ١٢/ ٣٠٦.

[2] السابق ١٢/ ٣٠٧، والبغاة هم الخارجون على الإمام أو غير الإمام بتأويل سائغ، مع كونهم عدولاً" (ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٠/ ٣٧٦)

[3] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٦٧، ابن قدامة: المغني ١٠/ ٤٩، الشوكاني: نيل الأوطار ٧/ ١٩٨

وأتباعهم[1]، وبعيد أن نسوي بين قتال طلحة والزبير وعائشة وقتال هؤلاء المعتدين من مانعي الزكاة[2]. لقد أتت الشبهة في ذلك من احتجاج بعض مانعي الزكاة بأن أداءهم لها مرتبط بحياة النبيﷺ الذي أمره الله بأخذها منهم وأن يصلي عليهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾[3]. وهو استدلال فاسد مبعثه الهوى، كما فهم جمهور الصحابة والعلماء من بعدهم، فالخطاب للرسول ﷺ هنا هو تكليف يمتد إلى من يلي أمر المسلمين بعده، والبعد الاجتماعي للزكاة غير مرتبط بحياته ﷺ[4]

وهناك شواهد تدل على صحة نظر الخليفة إلى مانعي الزكاة على أنهم مرتدون، فقد كان **بين طوائف المرتدين تنسيق يرقى إلى حد التحالف** في أثناء مواجهتهم للمسلمين، ويتضح ذلك مما يلي:

أ) إن القبائل القريبة من المدينة مثل عبس وذبيان وغطفان امتنعت عن أداء الزكاة وأغارت على المدينة أول استخلاف أبي بكر، وفي أثناء هجومها كان طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة يساعد تلك القبائل، وأمدهم بأخيه "حبال" الذي جعله أميرًا عليهم، وقيل إنه قتل أثناء إغارة أبي بكر عليهم في إحدى مراحل القتال[5].

---

(١) الطبري: السابق ٣/ ٢٤٦، ٢٧٧

(٢) راجع ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٤/ ٥٠١

(٣) سورة التوبة آية ١٠٣

(٤) والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ التوبة ١٠٤، فالله تعالى هو الذي يأخذ الصدقات في الحقيقة، وما رسوله في ذلك ومن يليه في مقام الإمامة إلا واسطة ليحقق مراد الله (راجع القرطبي: السابق ٨/ ٢٢٨، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٢٧، ٢/ ٥٠٨)

(٥) الطبري: السابق ٣/ ٢٤٤-٢٤٧، ويذهب ابن الأثير (السابق ٢/ ٢٠٩-٢٠٧) إلى أن "حبالاً" قتل فيما بعد بأيدي طليعة جيش خالد بن الوليد الذي توجه لحرب طليحة الأسدي فيما بعد.

ب) ولما تحققت هزيمة تلك القبائل مانعة الزكاة لجأت إلى طليحة هذا المتنبئ في بني أسد لتشاركه حربه ضد المسلمين[1].

ج) كانت قبيلة تميم وزعيمها مالك بن نويرة ممن امتنعوا عن دفع الزكاة، ولكنهم استقبلوا سجاح المتنبئة - وهي تميمية كانت تعيش لدى أخوالها في تغلب شمال الجزيرة العراقية - وانضموا إليها في مغامرتها العسكرية لفرض سيطرتها على اليمامة، مما يدل على تهاوي الفواصل بين الفريقين من المرتدين، فلما فشلت تجربة سجاح عاد بنو تميم إلى خندق مانعي الزكاة من جديد!!

الهدف هو الاستقلال السياسي عن الدولة الإسلامية:

ولو كان مانعو الزكاة مسلمين حقًا ويرفضون الانضواء تحت قيادة الدولة الإسلامية لكانوا بحكم عقيدتهم نافرين أشد النفور من دعم مدعي النبوة المرتدين، أو التحالف معهم ضد إخوانهم المسلمين، لكن يبدو أن الهدف الرئيس من حركات الردة هذه كان هدفًا سياسيًا؛ هو الانفصال عن سلطة دولة المدينة وقبيلة قريش، وهذا الهدف هو الذي جمع بين طوائفهم من متنبئين ومانعي الزكاة ووثنيين، وأنهم اختاروا الإطار الديني لحركتهم انسجامًا مع سمة العصر، وهو عصر النبوة والتدين والإيمان، وأن مدعي النبوة كانوا أكثر صراحة في التعبير عن هدفهم وكانوا أكثر قدرة على ذلك لبعد ديارهم في الأعم الأغلب عن المدينة مثلما حدث مع المرتدين باليمن "الأسود العنسي" واليمامة "مسيلمة الكذاب"، وكان أحدهم قريبًا من المدينة في حالة استثنائية وهو طليحة بن خويلد الأسدي، أما مانعو الزكاة فكانوا أكثر مراوغة والتواء في التعبير عن هدفهم، وكانوا أقل مقدرة عن المعارضة والمواجهة الكاملة بسبب قرب ديارهم من المدينة والمهاجرين والأنصار.

---

[1] الطبري: السابق ٣/ ٢٤٧-٢٤٨، ابن الأثير السابق ٢/ ٢٠٧.

وكان ادعاء النبوة تعبيرًا عن شعور أصحابها بقوة قبائلهم وقدرتها على مطاولة قريش، ولذا فقد بادروا إلى إعلان دعوتهم قبيل وفاة النبي ﷺ في وضوح وجلاء، أما مانعو الزكاة فكانت حركتهم متأخرة انتهازية عقب موت النبي ﷺ.

ومما يعزز القول بالهدف السياسي ذي الصياغة الدينية الهشة لهذه الحركات الخطيرة أن بعضها ظل في حركته المناوئة للدولة الإسلامية حتى بعد سقوط القناع الديني له، فقد ظل أتباع الأسود العنسي باليمن في ثورتهم ضد المسلمين بعد مقتل الأسود نفسه، وكان أحد قادة اليمن وهو قيس بن عبد يغوث ممن ساند الأسود حينًا ثم انقلب عليه حينًا، ثم ظل في تمرده بعد مقتله[1]، واستمر أتباع طليحة الأسدي من قبائل أسد وغطفان وفزارة وهوازن وغيرها في تمردهم بعد هزيمته وفراره، وانتظموا تحت لواء امرأة ثائرة تدعى أم قرفة سلمى بنت مالك الفزارية في حرب المسلمين[2]، أما الحطم بن ضبيعة زعيم المتمردين في البحرين فقد تجمع حوله المرتدون والوثنيون الذين لم يدخلوا الإسلام وذلك لحرب المسلمين[3].

وكل هذه أدلة على هشاشة البناء العقدي لدى حركات الردة، وأنه كان مجرد إطار للهدف السياسي الحقيقي وهو الانفصال عن الدولة، ولما كانت الدولة هي المعبر عن الإسلام فإن الثورة ضدها اتجهت أيضًا إلى الإسلام نفسه، كما أن من مطالب الإسلام الواضحة **الحفاظ على الوحدة السياسية لجماعة المسلمين**، ومحاربة من يريد لها الفرقة والفتنة[4]. وكلها أدلة أيضًا على **استمرار الصراع بين التيارين الإسلامي والقبلي في**

---

(1) راجع الطبري: السابق ٣/ ٣٢٣-٣٣٠، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢٣١-٢٣٣.

(2) الطبري: السابق ٣/ ٢٦٣-٢٦٤، ابن الأثير: السابق ٢/ ٢١١

(3) الطبري: السابق ٣/ ٣٠٤، ابن الأثير السابق ٢/ ٢٢٥.

(4) قال تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ سورة آل عمران، آية ١٠٣، وقال صلى الله عليه وسلم:"عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة." (أحمد: المسند، باب أحاديث رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، الترمذي: السنن، كتاب الفتن، وقال صلى الله عليه وسلم مَنْ خَرَجَ مِنْ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ (مسلم:الصحيح، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين)

هذه المرحلة، وقد مثل المرتدون التيار القبلي النافر من الحكم المركزي، أو الناظر إلى الحكم الإسلامي على أنه حكم قبيلة قريش التي لا يسلمون لها بأحقية الحكم والسيادة والإدارة.

المبحث الثاني

المعارضة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عمر يحرض رعيته على ممارسة دورهم السياسي في نصحه ومعارضته إن أخطأ، فهو القائل: "رحم الله من أهدى إليّ عيوبي"[1]، وقال في خطبته لما استخلف: "أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم"[2].

التطور الاجتماعي والسياسي وتطور منطلقات المعارضة:

شهد عصر عمر رضي الله عنه بداية تطورات ضخمة في الدولة، أخذت تتفاعل بمضي الزمن حتى بدت آثارها في أواخر خلافته، ونستطيع أن نحدد أربعة عوامل متداخلة أسهمت في ذلك التطور الكبير، وسوف تسهم في تكوين منطلقات للمعارضة فيما بعد:

١- حركة الفتوحات السريعة التي أدت إلى تحول دولة المدينة بما تمثله من تجانس اجتماعي وفكري وقيمي بين غالبية سكانها من مهاجرين وأنصار لتصبح دولة عالمية تضم أجناسًا شتى وأممًا مختلفة، ينتمون إلى جذور حضارية متباينة، وتنامت عملية امتزاج بشري وحضاري لا عهد للمسلمين بها من قبل. مما سيترك أثره فيما بعد في ظهور طموحات واسعة للقبائل التي أسهمت بالدور الأكبر في معارك الفتح، وباتت تتطلع إلى التنعم بثمراته، والمشاركة السياسية في إدارة مجتمع أصبحت تقوم بدور رائد فيه، بل إن الشعوب الداخلة في نطاق الدولة الإسلامية سترفع بعد قليل شعارات الحق في العدالة والمساواة، التي أقرها الإسلام، سواء دخلت في الإسلام - فرأت ذلك حقًا لها، مقتنعة به أو مستغلة له - أو بقيت خارج الإسلام تنشد ما ينشده الناس

---

[1] الدارمي: السنن ١/ ١٦٦، الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٦٤

[2] المتقي الهندي: كنز العمال ٥/ ٨٦١، حديث رقم ١٤١٨٤

بغض النظر عن أديانهم، أو تكيد للدين الجديد الذي أذهب مجدها الزائل، وثلّ إمبراطورياتهم التليدة.

٢- **وفرة الغنائم** الناتجة عن نشاط الفتوحات الإسلامية بما حملته من تأثيرات اجتماعية وقيمية، فلم يعد التشبث بالزهد والقناعة هو السمت الغالب على الحياة آنذاك، وقد تعاملت الدولة مع ذلك الواقع حين نظّم عمر ديوان العطاء، فأصبح لكل فرد من المسلمين نصيبه من هذه الأموال الذي يتراوح بين الكثرة والقلة حسب أسس تنظيم ذلك العطاء التي رتبها عمر بتفضيل الأقرب من رسول الله ﷺ والأسبق إلى الإسلام، وقد أدرك عمر رضي الله عنه النتائج السلبية التي قد ترتب على ذلك التنظيم، ونوى أن يعيد النظر فيه قائلاً: لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحدًا[١]، ولكنه لم يعش حتى يحقق مراده، وترتب على ذلك ازدياد أحقاد رجالات القبائل التي أسهمت بالدور الأكبر في حركة الفتح، ورأت جل الغنائم تذهب إلى قريش الأقرب للنبي ﷺ والأسبق إلى الإسلام.

٣- **بروز قوة الموالي والعبيد**: ومن ثمرات الفتوحات الإسلامية الواسعة أن انقذف في رحم الدولة ألوف من الموالي – المسلمين من غير العرب[٢] – والعبيد، وما لبثوا أن برزت قوتهم، وظهرت فعاليتهم الاجتماعية، كقوة عاملة في مجتمع تسببت وفرة العطاء لأبنائه في موجة من التكاسل والبطالة والنفرة عن مزاولة بعض الأعمال التي تحتاج جهدًا بدنيًا[٣]، والرغبة في الاستكثار من الأيدي العاملة شديدة الرخص قليلة الكلفة.

وقليلة هي الأخبار التي تسعفنا في هذه السبيل، لكنها واضحة الدلالة، فقد ذهب عمر يومًا إلى سوق المدينة فسأله أصحابه: كيف رأيت؟؟ فقال :"رأيت العبيد والموالي

---

[١] ابن سعد: السابق ٣/ ٢٣٢.

[٢] راجع عن دلالات لفظ "المولى" (د. محمد الطيب النجار: الموالي في العصر الأموي ص ١٣، ١٤)

[٣] ابن سعد: السابق ٣/ ٢٢٨-٢٢٩.

جُلَّ أهلها، وما بها العرب إلا قليلاً"، وكأنما ساءه ذلك، فقالوا :"يا أمير المؤمنين قد أغنانا الله عنها بالفيء، ونكره أن نركب الدنايا، وتكفينا موالينا وغلماننا! فقال عمر:"والله لئن تركتموهم وإياها ليحتاجن رجالكم إلى رجالهم، ونساؤكم إلى نسائهم"[1]!! وكان عمر ينظر إلى بعض الموالي بذهب إلى السوق فيقول لمن حضره من قريش:"لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة، فإن التجارة ثلث الإمارة"[2].

لقد شكلت هذه القوة الجديدة مادة صالحة للتمرد والثورة، سوف تظهر خطورتها وآثارها في المرحلة التالية، بل إن عمر نفسه سوف يقتل بيد أحد أبناء هذه الطبقة، أبي لؤلؤة الفارسي، غلام المغيرة بن شعبة، وهو يحتج بشعارات الرغبة في تحقيق العدالة والمساواة، وهو الوافد الجديد على جماعة المسلمين الذي آثر البقاء على نصرانيته دون الدخول في دينهم[3]!!

وحين يعرف عمر قاتله سوف ينظر في أسى إلى عبد الله بن عباس ويقول :"كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة!! – وكان العباس أكثرهم رقيقًا- فقال ابن عباس: إن شئت فعلتُ – أي قتلنا – قال :"كذبت، بعد ما تكلموا بلسانكم، وصلوا إلى قبلتكم، وحجوا حجكم"؟؟[4].

٤ – بروز دور الأمصار الجديدة وبعض العصبية القبلية العربية للقبائل التي انتقلت للسكنى بها، مع احتفاظ تلك القبائل بخصائصها القبلية في سكناها، فكان لكل منها "خططها" أو حيزها الجغرافي الخاص بها، الذي يفصله عن مواضع استقرار القبائل

---

(١) عمر بن شبة: تاريخ المدينة ص ٧٤٨

(٢) ابن الجوزي: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٢٢٨

(٣) إذ ذهب يشكو إلى عمر ما رآه ظلمًا حاق به من سيده المغيرة وقد أثقل عليه خراجه، فسأله عمر عن عمله، فرأى خراجه يسيرًا بالنظر إلى ما يتقنه من عمل، فصرفه، وهو يضمر أن يفعل له خيرًا، فلم تمض أيام حتى قتله وهو يصلي بالناس الصبح (راجع الطبري: السابق ٤/ ١٩٠-١٩٣)

(٤) البخاري: الصحيح، كتاب المناقب، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان، حديث رقم ٣٤٢٤

المجاورة سور له باب، بل بلغ من استقلال كل قبيلة في المدن الجديدة أن كان لها مسجدها الخاص بها، وجبانتها "مقبرتها" وسوقها، لكأنما انتقلت القبيلة من مضاربها القديمة إلى مضارب جديدة هناك[1]. فلم تحقق هذه النقلة الحضارية ببناء الأمصار الغرض المأمول منها، حيث لم يتحقق التداخل أو الانصهار الاجتماعي بين هذه القبائل. لقد كان ذلك تعزيزًا للروح القبلية انضاف إلى مظاهر أخرى؛ حيث ظلت القبيلة هي وحدة التنظيم العسكري في الجيوش، ووحدة التنظيم الاقتصادي في ديوان العطاء، فضلاً عن كونها وحدة سياسية معترفًا بها، لها زعماؤها الذين يمثلونها في مجالس الخليفة والأمراء. وحين تتجمع روافد التمرد والثورة ستكون هذه العصبية القبلية جاهزة لإمدادها بالوقود وقوة الدفع.

الآراء المعارضة في مجلس شورى عمر:

كان عمر حريصًا على مشاورة أصحابه، والأمثلة على ذلك عديدة، وكان يوسع دائرة الشورى كلما احتاج إلى ذلك، بل مما يؤثر عنه أنه – فيما يصفه الزهري – :"كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم، يبتغي حدة عقولهم"[2]، بل إنه قد يستشير بعض النساء، "فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به"[3]، وهو القائل: أصابت امرأة وأخطأ عمر"[4]، وفي مجالس الشورى هذه كانت الآراء المتعارضة، ويلاحظ هنا حرص عمر على تقدير كل هذه الآراء، ومحاولة الوصول قدر جهده إلى حالة من التوافق العام حول القضايا المهمة.

---

[1] قسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبلية، بينما قسمت الكوفة إلى سبعة أقسام، قللت بعد ذلك إلى أربعة (راجع: الطبري: السابق ٤/ ٤٨، د. شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ص ١٠٢-١٠٥، د. على حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ٢٤٢-٢٤٤، ٢٩٥-٢٩٧)

[2] البيهقي: السنن الكبرى ١٠/ ١١٣، حديث رقم ٢٠١١٨

[3] السابق والصفحة، حديث رقم ١٠١١٩

[4] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٩٥

ومن أشهر مواطن الشورى التي رويت عنه وظهرت فيها الآراء المتعارضة التي سعى للتوفيق بينها: مشاورته أصحابه في مسيره بنفسه لحرب فارس بعد هزيمة المسلمين في معركة الجسر سنة ١٣ هـ[١]، ومشاورتهم في أمر الأموال الكثيرة التي أنتجتها الفتوح وكيفية توزيعها[٢]، وكذا مشاورتهم في المضي في طريقه إلى الشام بعدما علم بنفشي الطاعون بها سنة ١٨ هـ[٣].

بروز المضمون الاجتماعي للمعارضة:

أ) المطالبة بتقسيم الأراضي المفتوحة:

لما حدثت الفتوحات الكبرى أقبل على المسلمين قدر هائل من الأرضين والأموال، فأراد المحاربون قسمتها فيما بينهم، وعزل الخمس للدولة، كما كان يحدث سابقًا، فأبى عمر ذلك، وأراد أن يجعل الأرض وقفًا على المسلمين جميعًا، ويضع على أهلها خراجًا مقابل بقائهم يزرعونها، يضاف إلى ما يدفعونه من جزية على رءوسهم، فيتوفر للدولة موارد مالية ثابتة تضمن استمرار حركة الفتح، مع ما يحققه ذلك من استمرار المسلمين فاتحين مجاهدين لا تشغلهم فلاحة الأرض، ولا يختلفون حولها، ومراعاة حقوق الأجيال التالية التي ستأتي فتجد أخصب أراض الدولة قد غدت ملكًا لبعض أبنائها دونهم، واستشار عمر كبار المهاجرين فاختلفوا عليه، فأرسل إلى

---

(١) أشار عليه عامة الناس بالخروج، فكره مخالفتهم، وأظهر موافقتهم حتى يجد الرأي الأفضل الذي يقنعهم به، واستشار خاصة أصحابه من كبار المهاجرين فعارضوا خروجه، وأشاروا عليه ببعث سعد بن أبي وقاص مكانه، فوافقهم، واعتذر للعامة (الطبري: السابق ٣/ ٤٧٨)

(٢) أشار عليه بعضهم بتوزيع تلك الأموال كلها، وتخوف آخرون من نتائج ذلك، وأشاروا عليه بتدوين ديوان تحدد فيه أسماء الناس وأنصبتهم، فأخذ بذلك (ابن سعد: السابق ٣/ ٢٢٤)

(٣) حيث اختلف المهاجرون الأولون حول إكمال مسيره أو لا، وفعل الأنصار صنيعهم، فدعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فأشاروا بالرجوع إلى المدينة، فوافقهم (البخاري: الصحيح كتاب الطب، حديث رقم ٥٣٩٧، مسلم: الصحيح، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة. حديث رقم ٢٢١٩)

عشرة من كبار الأنصار واستشارهم؛ فقالوا جميعًا: "الرأي ما رأيت"، فكتب بذلك إلى عماله بالعراق والشام[1]، وإلى عمرو بن العاص بمصر فقال: "أقرّها حتى يغزو منها حَبَل الحَبَلة!"[2]. وقد تعرض عمر لمعارضة - يبدو أنها كانت قوية - من بعض الصحابة، وكان أبرزهم بلال بن رباح والزبير بن العوام، الذين رفعوا لواء المطالبة بتقسيم هذه الأراضي الشاسعة على المقاتلين[3].

ب) الشكوى المتكررة من ولاة الأمصار انعكاس للتخلخل الاجتماعي:

أدى التجاور في تكتلات قبلية في الأمصار الجديدة على النحو السابق بيانه إلى تكثيف الإحساس القبلي على حساب التداخل الاجتماعي في النسيج السياسي للدولة المركزية الواحدة، مما أدى إلى تزايد الشعور بالنفرة من السلطة المركزية القوية، وقد اتخذ ذلك في البصرة والكوفة صورة الشغب الدائم منهم تجاه ولاتهم، والشكوى المتكررة التي كان من الطبيعي أن ترتدي أيضًا مسوح التقوى في عصر التدين والإيمان الذي لا يسيء إلى الرجل فيه شيء أكثر من الطعن في تدينه أو كفاءته.

لقد اتهم أهل الكوفة في خلافة عمر واليهم سعد بن أبي وقاص - على جلالة قدره وقديم صحبته وتاريخه في فتح العراق - بأنه لا يحسن الصلاة، "ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في الرعية، ولا يغزو في السرية"!! ولم يمنعهم من ذلك الشغب على أميرهم أن جيوش المسلمين كانت تتجهز آنذاك لخوض معركة فاصلة مع الفرس هي معركة نهاوند سنة ٢١هـ، فعزله عمر رغم التحقق من كذب دعواهم، وقال: لولا الاحتياط

---

[1] أبو يوسف: الخراج ٢٤، ٢٦

[2] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٨٨، وراجع في فهم عمر آيات القرآن التي يراها تتفق مع اجتهاده (أبو يوسف: السابق ص ٢٤-٢٦، يحيى بن آدم: الخراج ص ١٩، ٢٣)، وانظر في تقريظ فلهوزن رأي عمر: تاريخ الدولة العربية ص ٢٨

[3] وذكر بعضهم أنهم ألحوا عليه حتى قال عمر: "اللهم اكفني بلالاً وأصحاب بلال". (ابن رجب الحنبلي: الاستخراج لأحكام الخراج ص ٢٣)

لكان سبيلهم بيّنًا"[1]، وذلك مراعاة لأحوال المسلمين هناك وهم في جهاد يستلزم توفير الهدوء الداخلي لهم. ولعله أراد أن يستأثر بسعد ليكون بجواره بالمدينة، يستضيء برأيه مع إخوانه من كبار المهاجرين والأنصار، بدل أن يبدد طاقات الرجل في شغب أهل الكوفة الذي لا ينتهي.

وشكوا عاملهم عمار بن ياسر واتهموه بالغفلة وأنه لا يدري علام استعمله أمير المؤمنين[2]، حتى اغتم منهم عمر رضي الله عنه، وقال:"وأي نائب أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير، ولا يرضى عنهم أمير"[3]، وصدق فيهم قول الشعبي أنهم "أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الإسلام"[4].

ولم يكن حال البصرة أفضل من الكوفة فقد شكا بعض أهلها عاملهم المغيرة بن شعبة واتهموه بالزنى، فأنكر، فعزله عمر عنهم، وحقق في الأمر فلم يثبت عليه الاتهام بالبينة الشرعية[5].

لقد كانت تلك الممارسات المنذرة بالخطر تثير مخاوف الخليفة.الذي كان يقول:" اللهم ملونى ومللتهم، وأحسست من نفسي وأحسوا منى. فاقبضي إليك "[6]. وعندما عاد من حجه سنة ٢٣هـ دعا ربه قائلاً: "اللهم كبر سني، ورق عظمي، وخشيت الانتشار

---

(١) الطبري: السابق ٤/ ١٢٠-١٢١.

(٢) السابق: ٤/ ١٦٤.

(٣) السابق: ٤/ ١٦٢.

(٤) السابق: ٤/ ٢٥١.

(٥) السابق: ٤/ ٦٩-٧٢، البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٩-٣٤٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١٠٩-١١٠.

(٦) الطبري: السابق ٤/ ٢١٣-٢١٤، وانظر٤/ ٣٩٧ حيث يقول الشعبي: " لم يمت عمر رضي الله عنه حتى مَلّته قريش".

من رعيتي، فاقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم"، فاستشهد بعدها بأيام، طعنه أبو لؤلؤة الفارسي غلام المغيرة بن شعبة[1].

سياسة عمر تقلل خطر المعارضة:

ساعدت السياسة التي أدار بها عمر دولته – فضلاً عن مواهبه وقدراته الشخصية – على تقليل المخاطر التي كان يستشعرها بحسه الملهم، لقد كان عمر يبذل قصارى جهده ليظل مستمسكًا بالنسق الإسلامي الأعلى في حياته الخاصة والعامة، ظل زهده وورعه وعدله مضرب المثل ومثار الإعجاب في عصره وبعد عصره، وكان يأخذ أهله وقرابته بما يأخذ به نفسه[2]، واشتهرت محاسبته لولاته، وإنصاف الرعية منهم، وعزلهم إن كانوا موضع شكوى رعيتهم، وإن كانت الشكوى جائرة، كما مر بنا، وهو القائل: "هان شيئًا أصلح به قومًا: أن أبدلهم أميرًا مكان أمير"[3]، مع هيبة فُطِرَ عليها ونزوع إلى الحسم والشدة لم يدع لأحد عليه مقالاً، ولم يستطع مدعو التدين البدوي الجافي – الذين قاموا بدور بارز في اضطراب الأحداث فيما بعد – النيل من مكانته السامقة.

وبالرغم من ذلك فإن عمر لم يسعَ إلى فرض زهده على عامة الناس، ولم يطالب الآخرين بالسير على مثاليته، وكان ينظر بقلق إلى مظاهر الثراء الناشب ولكن لا يمنعه ذلك من أن يقول: "لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يخلفها لأهله، وألف لفرسه وبغله"[4]. وأدرك أثر اختلاف المجتمعات على ساكنيها وقادتها، فلما رأى معاوية بن أبي سفيان عامله على دمشق

---

[1] ابن سعد: السابق ٣/ ٢٧٧.

[2] راجع عن شدة عمر على نفسه وأهله (ابن سعد: السابق ٣/ ١٩٩-٢٠٠، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٥٤-٢٥٥، ابن الجوزي: السابق ١٣٧-١٣٨، ١٧٠-١٨٠، ٢٨٢-٢٨٣)

[3] ابن سعد: السابق ٣/ ٢٠٩، ابن الجوزي: السابق ١٥١

[4] ابن سعد: السابق ٣/ ٢٢٧

يغدو في موكب ويروح في أخرى، عنَّفه، لكنه قبل عذره حين قال: "نحن بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن نظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز الإسلام وأهله، ونرهبهم به"[1].

وشغل عمر الناس بالفتوح، ورمى بهم في حرب فارس والروم، فأفرغوا في ساحة الجهاد طاقاتهم المخزونة واستعدادهم المألوف للقتال، فلم يبقِ لهم فرصة للتحزب والاختلاف. ومنع قادات الصحابة البارزين من التوطن في الأمصار الجديدة مخافة تجمع الناس حولهم، بل حال بينهم وبين اتخاذ مجالس خاصة بهم قد تكون نواة لتجمعات ذات سمت اجتماعي وسياسي خاص، في وقت يستوجب حشد طاقات الأمة في الجهاد في ساحاته المفتوحة[2]. وليس في ذلك افتئات على حق هؤلاء النفر من كبار الصحابة في التنقل والدعوة لما يرونه مخالفًا لسياسة عمر- وطالما انتقدوها كما مر بنا فلم يضق بهم - بقدر ما هو إيثار لجمع كلمة الأمة التي تخوض حروبًا شاملة ضد أعدائها، وكثيرًا ما تلجأ الحكومات المعاصرة إلى تشكيل حكومات ائتلاف وتحالف في مثل هذه الحالات.

***

---

[1] ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ٦٣٤

[2] الطبري: السابق ٤/ ٢١٣-٢١٤.

الفصل الثالث

المعارضة في خلافة عثمان وعلي

يجب الحذر من مرويات هذه الفترة التي تلونت بألوان طائفية وحزبية حالت دون الرؤية الصافية لحقيقة الأحداث، مما يستدعي نقدًا حصيفًا لها، والمدخل الفضيل لدراسة المعارضة في هذه الفترة هو معرفة التطور الاجتماعي والسياسي الذي أفرز هذه المعارضة أو يسر سبلها ومد آفاقها. وسرعان ما اجتهد المعارضون في تطوير وسائل التعبير السياسي لديهم - منذ خلافة عثمان - واستغلال تحرج الخلافة وورعها في تحقيق مزيد من المكاسب، وكان دأب الخلافة حتى ذلك الوقت هو إفساح المجال أمام المعارضة ما دامت تنتهج نهجًا سلميًا لا عنف فيه، غير أن استمراء بعض المعارضين لين مواقف الخليفة أدى إلى تعطيله عن أداء عمله، وحصره في بيته، فلما علموا بتحرك جيوش الأمصار لنجدته سارعوا إلى قتله ليخلقوا واقعًا جديدًا ينشغل به الناس عنهم، بدل أن يؤاخذوهم بجريرة أفعالهم.

وبويع علي رضي الله عنه في ظروف شديدة الحرج بعد استشهاد سلفه، فتنامت بسرعة حركة المعارضة ضده التي ترتكز على تعجيل الطلب بدم عثمان في الوقت الذي كان الخليفة فيه يرى التريث وتسكين الفتنة، وقد استطاعت المعارضة من خلال وسائل متعددة أن توسع مداها، حتيال آلت الأمور إليها، بعد استشهاد الخليفة الرابع وتنازل ولده الحسن بن علي عن الخلافة.

المبحث الأول

المعارضة في خلافة عثمان

الحديث عن المعارضة في خلافة عثمان ومن بعده عليّ رضي الله عنهما محفوف بالخطر، إذ إن الروايات التاريخية التي وصلتنا عن هذه الفترة جاءت معبرة عن أهواء أصحابها السياسية والمذهبية مما يستدعي التحوط والحذر.

فقد بالغ بعض الرواة في تصوير الخلافات المحدودة التي نشبت بين بعض الصحابة والخليفة مبكرًا، ومن ذلك ما كان من عبدالله بن مسعود الذي عارض قرار الخليفة بجمع الناس على مصحف واحد مكتوب بلهجة قريش مخافة اختلافهم في كتاب الله، فأكرهه الخليفة على طاعته، غير أن خصوم عثمان قد نفخوا في هذه الحادثة وادعوا أن عثمان ضرب ابن مسعود ومنع عطاءه، وهو ما لم يحدث عند التحقيق [1]،

ومن ذلك ما قيل عن معارضة أبي ذر لعثمان ونفي الخليفة له إلى الربذة[2]، وهي مبالغة لم تحدث، وقد كان أبو ذر يرى مظاهر الغنى والتنعم لدى المسلمين؛ وهو ما لا عهد له به فيما سبق، فيروعه ذلك، فيفتي الناس بأن ما زاد من أموالهم عن حاجتهم هو من الكنز المحرم الذي نهى الله عنه، ويقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: ٣٤]، فيغضب الناس لذلك، إذ يعتقدون - ومعهم الحق والعلم الصحيح - أن ما أدوا زكاته من المال ليس بكنز محرم، ورفض نصح معاوية أمير الشام له بعد أن

---

(١) رفض ابن مسعود ترك مصحفه الذي كتبه بقراءة قومه هذيل بموافقة النبي صلى الله عليه وسلم، وحرض أهل الكوفة على مثل صنيعه، فلما رأى ذلك عثمان رضي الله عنه أكرهه على رفع مصحفه ومحو رسومه، وقد انتهى الأمر عند ذلك الحد (ابن العربي: العواصم من القواصم ٨٤)

(٢) تقع على ثلاثة أميال من المدينة وكانت من أحسن المنازل على طريق مكة (ياقوت: معجم البلدان ٣/ ٢٤)

خاف رد فعل الناس تجاهه، فاستدعاه الخليفة إلى المدينة، وراجعه، فأبى إلا الاستمساك برأيه، واختار أن يترك المدينة إلى الربذة – قريبًا من المدينة - فأذن له الخليفة، ووصله، وأجرى عليه رزقًا[1].

وهكذا كان سلوك الخليفة تجاه هذه المعارضة السلمية متفقًا مع المنطلقات الإسلامية التي تتقبل وجودها، وتسعى إلى التواصل البنّاء معها، وسوف يستمر ذلك المسلك مع المعارضة الجماعية السلمية حتى تتحول إلى معارضة مسلحة تودي بالخليفة نفسه.

أزمة العلاقة بين الخلافة والمعارضة:

أ) التطور الاجتماعي والسياسي وتطور المعارضة:

كانت التطورات الاجتماعية والسياسية التي شهدها عصر عمر رضي الله عنه تتفاعل وتمضي قدمًا، مما ترك أثره على تطور حركات المعارضة، وقد جاءت المعارضة لسياسة عثمان من الأمصار، وبخاصة الكوفة والبصرة اللتان أعيتا عمر بن الخطاب قبله، فقد اتهموا عاملهم الوليد بن عقبة سنة ٢٦هـ بشرب الخمر، فعزله عثمان، وأقام عليه الحد رغم الشكوك التي كانت تحيط بالواقعة[2]، وولى مكانه سعيد بن العاص فكتب إلى عثمان يصف له حال أهل الكوفة واضطرب أمرهم، واستقواء الجماعات الطارئة عليها والأعراب على أشراف أهلها، فكتب إليه عثمان رضي الله عنه بتفضيل أهل السابقة ممن فتح الله عليهم تلك البلاد، وأن يحفظ لكلٍّ منزلته، ويشملهم بالقسط، وقد أدى ذلك إلى غضب أصحاب الفتنة وإفشاء شائعات السوء ضده[3].

---

(١) ابن العربي: السابق ٨٤-٨٥.

(٢) الطبري ٤/ ٢٧٧-٢٧٨.

(٣) السابق: ٤/ ٢٧٩.

وفي ذلك إشارة واضحة إلى وجود أسباب اجتماعية لغضب الرعية هناك، وقد حاول عثمان معالجة ذلك الخلل في إطار سياسة العامة القائمة على تقديم أهل السابقة والدين، فأراد أن يزيد أعدادهم بالعراق، ويقوّي أوضاعهم بها، فسمح بانتقال من يرغب من الصحابة إلى العراق، وشراء الأراضي بها ليستقروا فيها، وقد وجد هؤلاء في ذلك فرجًا لهم، ونقلة عن سياسة الفاروق عمر رضي الله عنه الذي كان يحجزهم بجواره في المدينة مخافة تشعب الأمر وانقسام الناس حولهم بالأمصار إن جاوروهم بها.

لقد أدت تلك التطورات إلى تفاقم الأوضاع التي استهدفت تهدئتها وتصحيح اعوجاجها، فإن رجال القبائل الطموحين إلى دور سياسي واقتصادي أكبر لم يستسلموا لمجاورة أصحاب رءوس الأموال من الصحابة لهم.

إن نقاشات بعض زعماء التذمر في الكوفة - الذين أمر الخليفة بتسييرهم إلى الشام - مع واليها معاوية بن أبي سفيان تنبئ عن عميق مؤاخذتهم لقريش، وحسدهم لما نالته من السلطة والثروة معًا، وحاجّهم معاوية بضرورة قيام قريش بدورها كأمينة على الطابع الإسلامي للدولة[1]، وكان من هؤلاء النفر الأشتر النخعي وكميل بن زياد وعمير بن ضابئ ممن اتهموا بعد ذلك بالتحريض على الثورة ضد الخليفة وقتله[2].

ثمة إشارات خافتة إلى بروز قوى اجتماعية جديدة كان لها أثرها في تطور الأحداث خلال هذه الفترة، تلك التي أشار إليها والي الكوفة سعيد بن العاص في رسالته إلى الخليفة ووصفها بأنها "روادف ردفت - يقصد الجماعات الطارئة على الكوفة ممن ليسوا من أهلها - وأعراب لحقت"، وبلغ من تأثيرها أن أضحت الغالبة على تلك البلاد، فتراجع تحت تأثيرهم الدور التقليدي للأشراف وأهل السابقة فيها، وصورت

---

(١) راجع السابق ٤/ ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) السابق: ٤/ ٣١٨-٣١٩.

رواية أخرى تأثيرهم بأنهم كانوا مددًا وزادًا لمثيري الشغب والشائعات الذين أصبحوا في زيادة بمن" يتساقط إليهم من الأعراب والطارئين" على العراق، حتى غلب الشر[1]، وكان لهؤلاء دور بارز في قتل عثمان، فلما تولى عليّ رضي الله عنه كان راغبًا في حسم مادة الثوار فخطب بالمدينة قائلاً:" أيها الناس أخرِجوا عنكم الأعراب، يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم"، فأبوا عليه، ونادى مناديه:" برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه"، ولكن ظل ذلك دون فائدة[2].

الأعراب والعبيد إذن هما الأبرز في هذه الشرائح الجديدة، ونستطيع من خلال المعلومات القليلة المتوافرة عن هؤلاء الأعراب أن نفترض حدوث هجرات متتالية لعديد من جماعات البدو القريبة من العراق إلى المصرين الجديدين – الكوفة والبصرة – حيث موارد الرزق الأكثر اتساعًا، مدفوعين بطموح إنساني للمشاركة بحظ أوفر في تيار الحياة الزاخرة هناك، وهي هجرات كان لها نماذج قديمة قبل الإسلام اتجهت من البادية إلى العراق والشام، وقد ترتب على هذه الهجرة إلى الكوفة والبصرة تحرر هؤلاء الأعراب من الرابطة التي كانت تربطهم بقبائلهم، وأصبح عليهم أن يبحثوا عن تحالفات أو ولاءات قبلية جديدة لم تكن في قوة الرابطة العصبية بقبائلهم الأصلية، مما جعلهم يشعرون بقدر كبير من الحرية في الحركة، وكان تراجع أوضاعهم المادية قياسًا بالآخرين من الجيران – ناهيك عن السادة من قريش – مما يجرفهم إلى أتون الفوضى والتمرد والثورة، ويجعلهم وقودًا متجددًا لها، ويشكل منهم مددًا للطموحين من رجال القبائل الذين يتحركون بعيدًا عن سطوة أشرافهم وزعمائهم التقليديين.

أما العبيد فمن المؤكد أن تيار الفتوحات الإسلامية المتسع في الفترة التي سبقت هذه الأحداث قد أوجد أعدادًا كثيفة منهم بالأمصار والحجاز، وكان بعضهم تحركه

---

(١) السابق ٤/ ٢٨١.

(٢) السابق ٤/ ٤٣٨.

إحن دفينة ضد الإسلام الذي أذهب مجد دولتهم، وقد قتل عمر رضي الله عنه بيد واحد منهم – أبي لؤلؤة الفارسي – كما مر بنا.

وكان بعضهم تحركه روح الطمع والمغامرة حيث لا توجد آصرة اجتماعية تحول بينهم وبين ذلك، وفي أجواء الثورة والتمرد تحلل كثير ممن شاركوا فيها من رابطة الولاء لسيده بالفرار منه، أو الاحتماء بالقوى الأكثر صخبًا وبضجيج الأحداث المتسارعة، وكان هؤلاء الموالي يمثلون بواكير مشكلة من أعقد المشكلات الاجتماعية والسياسية التي تعرضت لها الدولة والمجتمع فيما أعقب ذلك من العصور.

ب) بعض سياسات عثمان تشجع المعارضة ضده:

بالرغم من أن عثمان رضي الله عنه تعهد بالسير على منهج أبي بكر وعمر عند البيعة له[1]، فإن طبيعته الشخصية وتطورات المجتمع في عصره قادت إلى لون من الأداء السياسي لا يخرج بحال عن ضوابط الإسلام وروحه، ولكنه يميل عن قمة المثالية الدينية والسياسية إلى نزعة أكثر واقعية وعملية.

كان عثمان شيخًا[2] موسرًا لا يرى بأسًا في التنعم بما حلَّ من الطيبات، مؤمنًا باللامركزية في حكمه، يتيح لعماله وأمرائه مساحة واسعة للحركة، فإن أساء أحدهم أو قصر لم يتوان عن عزله وإقامة العدل عليه[3]. وكان بعض ولاته من أقاربه الأكفاء، وهو يدنيهم ويسبغ عليهم العطايا من ماله، حتى يضطره ذلك إلى إجابة من يوجه إليه سهام النقد؛ بأنه إنما ولى ذا كفاءة وفضل، ممن كان عمر يوليهم، أو قريبًا منهم، وإنه إنما يعطيهم من صلب ماله لا من بيت مال المسلمين[4].

---

(١) السابق ٤/ ٢٣٤-٢٣٨.

(٢) جاوز عثمان السبعين عند ولايته، وتوفي في الثامنة والثمانين بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة، (راجع الطبري: السابق ٤/ ٤١٨)

(٣) كما فعل مع الوليد بن عقبة حين أقام عليه حد شرب الخمر وعزله مع ما أحاط الواقعة من ملابسات.

(٤) الطبري: السابق ٤/ ٣٧٤-٣٤٨، ابن تيمية: منهاج السنة ٣/ ١٩٠-١٩١، الديار بكري: تاريخ الخميس ٢/ ٢٦٧-٢٦٨.

وتراجعت مظاهر الزهد أمام وفرة الأموال في الأيدي، وتيقظ النزعة إلى التمتع الحلال، وزاد بعضهم في ذلك حتى ظهرت ضروب من الترف جلبت في مقابلها نقمة أصحاب الورع، ورفع أبو ذر الغفاري عقيرته بالإنكار الشديد على كل من ادخر مالاً فوق حاجته، وعدَّه من الكنز الحرام، فأثار بدعواه تذمر جماهير المسلمين الذين يرون مالهم حلالاً ما داموا قد أخرجوا زكاته، وطيبوا مدخله، كما مر بنا.

وبالغ آخرون في إنفاذ عبادة **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، فعظموا الصغائر وجعلوها كبائر، أو اختلقوا تلك الذنوب وألصقوها بالخليفة وولاته، دون التفات إلى حرج الموقف أو دقة الحال، مثلما حدث من تثوير محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة الناس بمصر ضد الخليفة وعامله عبدالله بن سعد بن أبي سرح، والناس يومها مشغولون بحرب الروم في أول مواجهة بحرية بين الفريقين في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ[١]. بل إن عبدالله بن سبأ - تلك الشخصية القلقة في تاريخ هذه الفترة[٢] وهو يهودي ادعى الإسلام ليكيد له - كان يوحي لأتباعه بإظهار شعارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم يطعنون في الخليفة والولاة[٣]. ولعله من الحكمة ألا نبالغ في نسبة الدور الجسيم في هذه الأحداث إلى ابن سبأ، وأتباعه، ولكن وألا نقع في المجازفة بإنكار وجوده، ونتصور أن أصحاب الديانات والحضارات الذين ضرهم انتصار الإسلام لم يكن لهم دور في مقاومته، وانتهاز هذه الفرص السوانح للتنفيس عن أحقادهم، وما اغتيال عمر بيد أحد الفرس إلا مثال على الطريق.

---

(١) راجع الطبري: السابق ٤/ ٢٩٢، ابن الأثير: الكامل ٣/ ١٥١

(٢) أنكر بعض الباحثين وجود ابن سبأ (د.عبد العزيز صالح الهلابي: عبدالله بن سبأ، مقال بمجلة حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، حولية ٨ سنة ١٩٨٦م - ١٩٨٧م)، وبعضهم يرجح أنها موجودة، ولكنها تؤثر العمل السري، ومن هنا جاء غموضها (د. فهمي عبد الجليل: فرقة السبئية ونشاطها الهدام في خلافة عثمان وعلي وعلاقتها بالفرق السياسية في تاريخ الإسلام "مقال بمجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم، عدد ٧، سنة ١٩٨٩م)

(٣) الطبري: السابق ٤/ ٣٤١.

لقد كان هؤلاء الورعون - الذين عرفوا "بالقراء" - ينقصهم الوعي السياسي بخطورة المرحلة التي تجتازها الدولة في تطورها، واحتياجها إلى تصبّر ومطاولة وتوافق بين فعالياتها في النظر للمستقبل، ويجدون الوقت والجهد ليفرغوه في شغب غير متبصر بالعواقب، بينما كانوا في خلافة عمر مشغولين في ساحات الجهاد.

ج) العجز عن استيعاب فوران القبائل العربية وطموحها:

لقد انتهت الفتوحات أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان إلى حدود جغرافية وعرقية واضحة، وكان استمرارها يعني مصادمة قوى جديدة مثل الترك في شرق الدولة أو البربر في غربها، بعدما تقوضت أركان إمبراطورية فارس بعد سنوات يسيرة من خلافة عثمان، وقُتِل ملكهم يزدجرد سنة ٣١هـ[1]، وبالتالي فإن الطاقة المخزونة لدي هؤلاء القراء – وغيرهم من رجال القبائل المعتادين القتال - أصبحت تهدد الدولة بالتسرب إلى الداخل بدل الخارج. **إن الجماعات المحاربة التي احترفت القتال** على مدى عقود من الزمن يصعب السيطرة عليها وإقناعها بالعمل المدني الهادئ، **فذلك يهدد مستقبلها القائم على تواصل الغزو والإفادة من ثمرات القتال.**

لقد كانت هذه القبائل تجد مبررات الغضب من زاوية أخرى، إذ ظلت بعيدة عن المشاركة المقنعة في الحكم الذي كانت قريش تهيمن عليه مع أنصارها القدماء، وظلت بعيدة عن التمتع الذي ترتجيه بثمرات الفتح وغنائمه التي صب معظمها في صالح قريش بحسب النظام الذي وضعه عمر رضي الله عنه، ولم يعش لتغييره كما كان يأمل، ولقد أثمرت تلك الأوضاع نقمة وحسدًا من هذه القبائل لقريش، وعبرت تلك المشاعر عن نفسها في صورة التمرد والثورة على عمال الخليفة؛ وعليه هو نفسه وسياسته[2].

---

(1) السابق ٤/ ٢٩٣-٣٠٠، ابن الأثير: الكامل ٣/ ١٤-١٨

(2) من يراجع الحوارات التي دارت بين معاوية والنفر المسيرين إليه من متمردي الكوفة سيجد دلائل ذلك ومنه قول معاوية لهم: "وقد بلغني أنكم نقمتم قريشًا، وإن قريشًا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم، إن أئمتكم لكم إلى اليوم جُنَّة." فقال أحدهم: "أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فنخوفنا، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلص إلينا". أي أننا إذا قتلنا ولاتنا صارت الولاية إلينا، فقال معاوية: "لا أم لك، أذكرك بالإسلام وتذكرني بالجاهلية" (راجع سيف بن عمر: الفتنة ووقعة الجمل ٣٦-٤٠، الطبري: ٤/ ٣٢٨-٣٢٩، ابن العربي: العواصم من القواصم ١٢٨)

وتنبه ابن خلدون إلى ذلك حين قال: "كانت عروق الجاهلية تنبض، ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين الأنصار من قريش وسواهم، فأنفت نفوسهم منهم، ووافق أيام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللحظات والخطرات، والاستبطاء عليهم في الطاعات، والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل، ويفيضون في النكير على عثمان..."[1].

والحق أن الخلفاء كانوا سيئي الظن بهذه القبائل منذ ارتدت عقب وفاة النبي ﷺ ثم عادت إلى الإسلام بعد حروب وعناء، فلم يكن أبو بكر رضي الله عنه يشركهم في حركة الفتوح التي بدأت بعد حروب الردة، واضطر عمر رضي الله عنه إلى إشراكهم اضطرارًا نتيجة تزايد مساحات المواجهة واحتياجه إلى الجند الفاتحين، لكنه استمر على حذره تجاههم، فكان "لا يؤمِّر منهم أحدًا إلا على النفر، وما دون ذلك"[2]، وقد أمر قائده سعد بن أبي وقاص أن لا يولي رؤساء أهل الردة على مائة من جنده[3]، وقد كان ذلك أمرًا له ما يبرره في دولة تجاهد من أجل العقيدة، وتجتهد في إظهارها خالصة من كل شائبة، وهو في الوقت نفسه يبدو اجتهادًا مرحليًا لا يكتسب صفة الدوام، فقد سار عمر رضي الله عنه شوطًا بعد رفض أبي بكر المطلق لإشراكهم في جيوشه، وكان ينبغي لذلك التفكير أن يمضي قدمًا فتأخذ هذه القبائل – وقد غدت مادة معظم الجيوش وسكان الأمصار – مكانتها بالتدريج، وبخاصة تلك الأجيال الشابة التي يشكل الإسلام كامل أو معظم خبرتها التاريخية، وقد غدت مشاركة زعمائهم في إدارة أمور البلاد بالرأي أو الممارسة العملية ضرورة في ظل تلاشي أعداد المهاجرين والأنصار السابقين إلى الإسلام بمضي الزمن، وضمور قوتهم؛ وكانوا موضع إكبار يجل عن المنازعة؛ وبخاصة بعد تمصير الأمصار وتنامي قوة القبائل فيها، وبعبارة

---

(١) العبر ٢/ ٥٦٠-٥٦١.

(٢) الطبري: السابق ٤/ ٢٥.

(٣) السابق: ٣/ ٥٥٧.

أخرى يمكن القول بأن النظام التقليدي بات في أزمة تستوجب التطوير لاستيعاب القوى الجديدة وتلبية طموحاتها.

د) أزمة العلاقة بين مركز الدولة وأطرافها:

وقد جاءت الثورة على عثمان ترجمة واضحة عن هذه الأزمة حيث عجزت العاصمة "المدينة المنورة" عن مواجهة زحف الأطراف الشابة "الأمصار في مصر والعراق"، وحوصر الخليفة، وقُتل في عاصمة دولته وبين فعالياتها القديمة التي ظهر كثير منها وهو يتعجب لتفاقم الأحداث؛ دون قدرة منه على ملاحقتها. وسوف يقوم ممثلو هذه القوى الجديدة بالبيعة للخليفة الجديد علي بن أبي طالب وأخذ زمام المبادرة الفعلية في ذلك، وإن ظل الخليفة الجديد أيضًا يتلفت إلى الواقع القديم وهو يقول لهم: ليس ذلك إليكم – يعني أمر البيعة – إنما ذلك إلى أهل بدر!![1]، بالرغم من أنه هو نفسه سيكون مضطرًا بعد قليل من استخلافه إلى التحول عن المدينة إلى الكوفة، قائلاً: "إن الأموال والرجال بالعراق[2].

لقد أحدث عمر رضي الله عنه تطورًا مهمًا في إدارة الدولة الإسلامية بعدما شهدته من اتساع في مساحتها، وتباين في أصول سكانها[3]، لكن التطور المتسارع للدولة آنذاك كان يستلزم استمرار التطوير الإداري ودعمه.

كان من المسلم به في المفهوم السياسي في هذه الفترة مبدأ أن الأئمة من قريش[4]، وأن قادة الأنصار شركاء لهم بالرأي والمعونة والتنفيذ، وقد عبر أبو بكر عن ذلك يوم السقيفة بقوله: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء"[5].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٤٠

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ص ١٤٣

(٣) راجع حمدي شاهين: دراسات في عصر الخلفاء الراشدين ١٦٨-١٧٩

(٤) عبر أبو بكر عن ذلك بقوله: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، وقوله: لن تصلح العرب إلا برجل من قريش، فالناس لقريش تبع (ابن حجر: السابق ٧/ ٣٥)

(٥) الطبري: السابق ٣/ ٢٢٠، وانظر البخاري السابق كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٣٦٦٧، ٣٦٦٨

وكان من المنتظر فيما تلا ذلك من فترات الاستمرار في ذلك المنهج من إشراك كافة القوى السياسية والاجتماعية المؤثرة في تسيير أمور الدولة، لكن ذلك لم يحدث بالدرجة المنشودة. والمجتمع الإسلامي مجتمع متطور ككل المجتمعات البشرية، ومن الطبيعي أن تضعف بعض قواه وتشتد أخرى، وتتغير بالتالي موازين القوى داخله.

هـ) جمود مصطلح "أهل الحل والعقد":

لقد ظل "أهل الحل والعقد" كما كانوا هم الصفوة من السابقين إلى الإسلام، وإن لم يكونوا محددين على نحو دقيق، وكان يجب أن تتطور هذه الهيئة وألا تقف جامدة عند مرحلة تاريخية بعينها، حتى تظل معبرة عن أصحاب الشوكة والعصبية القادرين على تمثيل المجتمع وإقرار النظام فيه. وقديمًا قال ابن خلدون إن الشورى والحل والعقد "لا تكون إلا لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك، وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها؛ إنما هو عيال على غيره، فأي مدخل له في الشورى أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها"[1].

و) آليات التولية والعزل ورفض عثمان الاعتزال:

إن الاعتقاد السائد عن الخلافة في الإسلام في زماننا أن الخليفة كان يتولى الحكم مدى الحياة، وذلك اعتقاد صحيح في جانب منه، وعلى الجانب الآخر كان أمرًا مقررًا أنه من حق الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد عزل الخليفة متى فقد صلاحيته للحكم، وهذه الصلاحية تتصل بقدرته على الحكم، وعدله فيه، وتنفيذه أحكام الإسلام،

---

(١) المقدمة ٢/ ٦٣٤، والمعنى نفسه عند الجويني: غياث الأمم ٥٥-٥٧، وراجع: محمد عبده: تفسير المنار (مجلة المنار ص ٣٨٣-٣٨٩ الجزء ١٢ من المجلد ١٣ ، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة ١٣٢٨ هـ ، ١ يناير سنة ١٩١١م)، تفسير القرآن الحكيم ٤/ ٢٠٣ -٢٠٤، حيث يرى أن أهل الحل والعقد هم: " الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء ، الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح بعامة".

وذلك ما يتضح جليًا من خطبة أبي بكر حين تولى أمر الخلافة، حيث قال: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم"[1]. وكون ذلك لم يتحقق في خلافة أبي بكر وعمر – لأنهما كانا في الذروة من التوفيق والنجاح والعدالة – لا يعني استبعاد تحقيقه فيما بعد إن وجدت أسبابه.

ولما اشتدت حركة المعارضة ضد أمير المؤمنين عثمانرضي الله عنه وقدم مئات من أنصارها إلى المدينة فالتقوا بالخليفة كانوا يفهمون أن من حقهم عزله، لأنه من وجهة نظرهم يستوجب العزل، وظلت حركتهم حركة معارضة سلمية تجتهد من أجل تحقيق أهدافها دون عنف أو قهر في بدء الأمر، وقد حاوروا الخليفة فاستجاب لبعض مطالبهم ووعدهم خيرًا، وعرَّفهم عذره، فعذره جمهورهم، لولا أن تطورت الأحداث على نحو مريب فيما بعد، فعادوا يطالبون بعزله وإلا قتلوه[2].

وقد رفض عثمان الاستجابة لهم، وعبّر الحوار الذي دار بينه وبين عبدالله بن عمر رضي الله عنه عن سبب رفضه؛ حيث قال لابن عمر: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون اخلع نفسك أو نقتلك، فقال ابن عمر: أتخلّد أنت في الدنيا؟ قال: لا، قال: هل يزيدون على أن يقتلوك؟ قال: لا، قال: فلا تخلع قميص الله عنك فتكون سنَّة، كلما كره قوم خليفتهم خلعوه أو قتلوه[3].

ومعنى ذلك أن الخليفة برفضه طلب هؤلاء منه الاعتزال كان يدافع عن نظام الدولة الذي لا تستقر بدونه، وهو **أن أمر التولية والعزل لا يقوم به أي فرد أو جماعة**، وإلا تحول الأمر إلى فوضى، وأن ذلك موكول إلى أهل الحل والعقد فيها، وكانوا في

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٤/ ٢٣٢، الطبري: السابق ٣/ ٢١٠، ابن الأثير: السابق ٢/ ١٩٤-١٩٥

(٢) حيث اختلقوا قصة الكتاب المزعوم من عثمان إلى عامله على مصر بمعاقبتهم، فعادوا لحصره وتهديده بالقتل (الطبري: السابق ٤/ ٣٥٤-٣٥٦، ابن العربي: السابق ١٢٤-١٢٧، وتحقيقات محب الدين الخطيب بالحواشي).

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٧٦، ابن العربي: السابق ١٣٠.

الفكر السياسي آنذاك يتمثلون في السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار، ولم يكن هؤلاء الثوار منهم بحال.

ولم يكن الخليفة آنذاك يجانبه الصواب، رغم استمرار قناعته بتضييق دائرة أهل الحل والعقد، فبالرغم من أن هؤلاء الثائرين كانوا يمثلون طموحات بعض القوى الجديدة الغاضبة إلا أنهم لم يكونوا في الحقيقة ممثلين لغالبية توجهات الأمة، وسوف تثبت الأحداث فيما بعد أن مسلكهم في حصر الخليفة ثم قتله كان موضع إدانة جمهور المسلمين.

تطوير وسائل الضغط السياسي لدى جماعات المعارضة:

أ) الخداع السياسي:

وبرع المعارضون في الخداع السياسي.

ومن ذلك أنهم لما خرجوا من أمصارهم لحصار الخليفة خرجوا على أنهم حجيج إلى بيت الله كي لا يتربص لهم أحد بسوء[1].

ومنه **ادعاؤهم تأييد كبار الصحابة** لهم ليفيدوا من رصيدهم الديني والنفسي لدى العامة، مما يعني إعطاء حركتهم شرعية مزيفة كانوا أحوج ما يكونون إليها، وتضم قائمة هؤلاء الصحابة الكبار عليًا وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص وعمار ابن ياسر وغيرهم[2]، ويبدو أن الثائرين **استغلوا ببراعة معارضة بعض الصحابة** ونقدهم بعض سياسات الخليفة أو مواقفه، وهو أمر رأينا مثيلاً له في سلوك المعارضة تجاه سياسات أبي بكر وعمر؛ مع اختلاف في الكم والكيف، وكان الخلفاء يتقبلون ذلك، ويرونه حقًا للمسلمين لا حرج في القيام به، بل يحرضونهم عليه أحيانًا، وقد كان تطور الأوضاع في الدولة وطبيعة الخليفة مما يهيئ المجال لاتساع دائرة النقد في

---

(١) الطبري: السابق ٤/ ٣٤٨

(٢) راجع ابن العربي: العواصم من القواصم ١٤٠-١٤١ والحواشي للشيخ محب الدين الخطيب.

بعض الأحيان، ولكن شتان بين مقاصد هؤلاء الجماعة الناصحين وممارساتهم وبين مقاصد وممارسات الثائرين على عثمان!!

وقد نجحت دعاية هؤلاء المفتونين في إيهام كثير من العامة والرواة بأن بعض الصحابة يؤيدونهم في ثورتهم ضد الخليفة، وذلك خلط شديد بين تأييد بعض الصحابة لهم في معارضتهم أو نقدهم لسياسته - وهو الأمر المعهود في الممارسة السياسية الإسلامية كما مر بنا - وبين تأييدهم في قتله أو حصره على النحو الذي حدث.

وكان من وسائل الثوار لتأكيد دعم كبار الصحابة وأمهات المؤمنين لهم وضع الكتب المزورة التي تحرض الناس على الخليفة وعماله وسياسته، ونسبتها إليهم. وقد احتفظ المؤرخ المصري الكنْدي لنا بوصف مفصل لطريقة تزوير هذه الكتب[1]!!

ولما هاجم الثوار المدينة ليحاصروا الخليفة ووجدوا معارضة لهم من كبار الصحابة وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فسأله بعض الثوار: فلم كتبت إلينا؟ قال: "والله ما كتبت إليكم"، فنظر بعضهم إلى بعض، وكأن المخدوعين منهم بوغتوا بجوابه، ولسان حالهم يتساءل عمن زور كتابه إليهم؛ ما دام هو لم يكتبه[2].

ولما قتل عثمان رضي الله عنه وثارت أم المؤمنين عائشة تطلب القصاص له، قال لها مسروق بن الأجدع الهمداني أحد التابعين الفقهاء :"هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه"، فقالت عائشة: "والذي آمن به المؤمنون، وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم سوادًا في بياض"، فكانوا يرون أنه كتب على لسانها[3].

---

(١) ولاة مصر ص٣٨.

(٢) راجع: الطبري: السابق ٤/ ٣٥١، ابن العربي: السابق ١٢٨.

(٣) ابن العربي: السابق ١٣٦.

وكما زوّروا الكتب ليدعوا تأييد قادة المهاجرين وأمهات المؤمنين لهم فإنهم زوروا الكتب أيضًا على لسان عثمان ليوجدوا المبرر لقتله. وهذا ما حدث حين منعهم كبار الصحابة من دخول المدينة، وجاوروهم حتى أظهروا العودة إلى أمصارهم، ثم كروا راجعين، وهم يزعمون أن أهل مصر وجدوا كتابًا من عثمان يحمله غلامه إلى عامله على مصر بقتلهم، فلم ينطلِ ذلك الخداع على عليّ رضي الله عنه، فقال: "كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة"، أي صنعه بعض شركائهم الذين تخلفوا عنهم وظلوا بالمدينة، فلم يجدوا جوابًا، فقالوا :"ضعوه حيث شئتم، لا حاجة لما في هذا الرجل، ليعتزلْنا"[1].

ب) تشويه صورة الخليفة وعماله :

ومن مكرهم تلك الأكاذيب التي روجوها عن الخلاف بين عثمان وبعض الصحابة، وهو أمر وارد الحدوث كما مر بنا، وقد رأينا تضخيمهم الخلاف بين عثمان وأبي ذر، وبينه وبين ابن مسعود، ومن ذلك افتراؤهم على عامل الكوفة الوليد بن عقبة واتهامه بأنه صلى بهم مخمورًا، وهو الاتهام الذي تكفلت رواية الطبري ببيان زيفه[2].

ومن ذلك سعيهم إلى إظهار الخليفة وولاته بمظهر العاجزين عن حماية أهل الذمة، والروايات عن ذلك خافتة لكنها ذات دلالة، منها وصف أفعال حكيم بن جبلة - أحد الزعماء البارزين للفتنة في البصرة - وأنه كان إذا عادت الجيوش الإسلامية الفاتحة تأخر عنهم، فسعى في أرض فارس ليغير على أهل الذمة، ويتنكر لهم، ويفسد في الأرض، ويصيب ما شاء ثم يرجع، فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى

---

(١) الطبري: السابق ٤/ ٣٥١.

(٢) السابق ٤/ ٢٧١-٢٧٨

عثمان، فكتب إلى عامله هناك عبدالله بن عامر بحبسه، أي منعه من مغادرة البصرة[1].

وتعزز رواية أخرى من شكوكنا؛ وأن الأمر ليس أمر لص يستضعف جماعة فيغير عليهم، حيث إن معاوية أمير الشام لما حاور المسيَّرين إليه من زعماء الفتنة بالكوفة كتب إلى عثمان بحالهم، فكان مما قاله: "إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة"[2].

ج) استغلال ضعف منظومة الأمن الداخلي بالدولة:

قتل عمر بن الخطاب في عاصمة دولته، وبوغتت المدينة من الثائرين على عثمان حتى تمكنوا من حصره ثم قتله، وسوف يقتل بعدهما علي بن أبي طالب، وبذا فإن ثلاثة من الخلفاء الراشدين الأربعة طالتهم يد العدوان، وهم من هم عدلاً وسموًا ورحمة، وكان قتلهم في عاصمة دولتهم – المدينة ثم الكوفة - لا خارجها.

ومعنى ذلك أن خللاً شديدًا كان ينتاب منظومة الأمن الداخلي في الدولة الإسلامية التي غلب على خلفائها جانب الثقة في ولاء أهلها على جانب الحذر من أعدائها، وكانت حالتا عثمان وعلي بخاصة تستدعيان الحذر. فالأول كان يعالج اضطرابًا وثورة، والثاني ينتظر القتل من الخوارج الذين يكفرونه ويهددونه جهارًا بالموت، وبخاصة بعدما وَترهم بقتل عامتهم وخيارهم [3].

وفيما بعد لما اتخذ معاوية بن أبي سفيان شرطة لحمايته - بعدما تعرض للاغتيال هو الآخر على يد الخوارج - عدَّ بعض الناس ذلك نقصًا في إدارته، ونكوصًا عن سنن الخلفاء الراشدين وهديهم، رغم أن النبي ﷺ كان يتخذ حرسًا له في المدينة، وظل على ذلك حتى نزل قوله تعالى (وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[4].

---

(١) السابق ٤/ ٣٢٦.

(٢) السابق ٤/ ٣١٨-٣١٩

(٣) السابق ٥/ ٧٢-٧٤، ٨٤-٩٢

(٤) سورة المائدة من الآية ٦٧، وراجع الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤/ ٦٤٦، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٦٥

ولم يكن الخليفة وحده هو الذي يفتقد الحراسة في دولة يتربص بها أعداؤها، وتمور بأهواء بعض أبنائها، بل كانت عاصمة الدولة المدينة المنورة تحتاج إلى قوة تحرسها وتضبط حركة الدخول والخروج إليها، وبخاصة في فترات الثورة والتآمر والغضب، ولا غرو أن وجدنا الثائرين على الخليفة يباغتون المدينة حين كرتهم إليها فيسيطرون عليها دون مقاومة.

وتوجد دلائل على أن ولاة الأمصار كانوا أكثر حذرًا، ففي البصرة انتبه واليها عبدالله بن عامر إلى خطورة عبدالله بن سبأ، فأخرجه منها، فاتجه إلى الشام، فلم يستطع بث دعايته بها ليقظة واليها معاوية[1]، فسار إلى مصر فوجد عونًا في الأجواء التي صنعها محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر، ولم يكن ابن أبي سرح واليها غافلاً عنهما، فقد كتب بخبرهما إلى الخليفة فنهاه عنهما لقرابتها وفضل والديهما[2]، ولا ريب أن هذه اليقظة قللت من مخاطر ابن سبأ وجماعته، وإن لم تقض عليها[3].

د) التظاهر والاعتصام:

ومن أبرز وسائل الضغط السياسي لدى جماعات المعارضة آنذاك التظاهر السياسي، ويراد به: التجمع في موضع واحد تعبيرًا عن موقف سياسي خاص، وكان من المتوقع في عصر الإيمان والدين أن تكون ساحات الاحتشاد هي المساجد، وشعارات المحتشدين هي شعارات الإسلام المطالبة بالعدالة والمساواة والحق.

فقد تجمع المعارضون في مسجد الكوفة يريدون خلع الخليفة وعاملهم سعيد بن العاص، مغتنمين فرصة غياب سعيد بالمدينة للتشاور مع الخليفة، وأظهروا أنهم يطلبون البدل من أميرهم لا غير، وأرسل زعيمهم يزيد بن قيس إلى الأشتر النخعي

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٣٢٦-٣٢٧، ٣٤٠.

(٢) ابن الأثير: السابق ٣/ ١٥١.

(٣) الطبري: السابق ٤/ ٣٤٠-٣٤١.

ورفاقه – وكانوا بالشام منذ سيّرهم الخليفة إليها بعد شغبهم بالكوفة – فخف إليه الأشتر، ووقف بباب المسجد وهو يقول: "جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان، وتركت سعيدًا عنده يريده على نقصان نسائكم إلى مائة درهم، ويزعم أن فيئكم بستان قريش"، أي من حقهم، فأثار الناس بقوله، وعادوا للاحتشاد والتظاهر خارج الكوفة، حيث منعوا سعيدًا عند عودته إليها من دخولها، فانصرف عنهم إلى الخليفة الذي لبى طلبهم الظاهري بعزله، وولى من اختاروه بدلاً منه: أبا موسى الأشعري[1].

وكانوا يتجمعون في مسجد الفسطاط تأثرًا بدعاية زعماء الثائرين بها الذين أشاعوا بينهم أن نساء النبي ﷺ كتبن إليهم يطالبون بالثورة على عثمان، وأن رسلهن سيأتون بالكتب لتقرأ عليهم بالمسجد، "فيجتمع الناس في المسجد اجتماعًا ليس فيه تقصير"، ثم يقوم من يقرأ الكتب فيقول: إنا نشكو إلى الله وإليكم ما عُمل في الإسلام، وما صُنع في الإسلام، فيقوم رؤساء الثورة في نواحي المسجد بالبكاء، وينفر الناس مما قرئ عليهم[2]!!

الاعتصام:

وفكرة الاعتصام تطوير للتظاهر، حيث تبقى التظاهرات يومًا أو بعض يوم، أما الاعتصام فيستمر مدة أطول في موضع أو مواضع محددة.

وقد استطاع الثائرون على عثمان رضي الله عنه تنفيذ اعتصامهم في قلب عاصمة الخلافة ومسجدها للمطالبة بهدف محدد وهو عزل الخليفة، أو بمعنى أدق: إجباره على الاستقالة، وهذا هو الذي يسميه المؤرخون القدماء ب "الحصار"، ولم يكن حصارًا بالمعنى الدقيق، إذ لم يحاصر الثائرون أهل المدينة، ولم يمنعوهم طعامًا ولا شرابًا، ولم يمنعوهم الخروج من بلدهم، أو الدخول إليها، بل اتجه الحجيج وقتها من

---

[1] الطبري: السابق ٤/ ٣٣١-٣٣٢.

[2] الكندي: ولاة مصر ص ٣٨

المدينة إلى مكة دون إعاقة[1]، لكنهم منعوهم من الاجتماع كيلا يتحركوا ضدهم[2]، لقد حاصروا الخليفة في داره، لكن ذلك لم يحدث في بداية اعتصامهم بالمدينة، بل في الفترة الأخيرة منه حين قرروا تضييق الخناق عليه ليستقيل. فالروايات عن هذه الفترة تثبت أن مدة نزول الثوار المدينة كانت سبعين ليلة، أما مدة حصارهم عثمان فكانت أربعين، ولم يكن حصارًا كاملاً، إذ ظل يصلي بهم نحو عشرين يومًا، ثم شددوا الحصار عليه فمنعوه من الخروج ومنعوا عنه الطعام والشراب، والذي أسهم في هذا التطور هو معرفتهم بأخبار تحرك جيوش الأمصار لنجدة الخليفة وتمكينه من مزاولة مهام خلافته[3].

إن مجرد الاعتصام وإعلان المطالب يندرج ضمن آليات المعارضة السلمية التي تقبّلها عثمان، رغم أنها سببت انزعاجًا بالغًا لديه ولدى كثير من المسلمين الذين لم يعتادوا هذا النوع من وسائل الاحتجاج والتغيير، ولم ينتهج الخليفة ولا أنصاره تجاهها أي سبيل للعنف، إلا أنها نحت منحى خطيرًا في مرحلتها الأخيرة حين منع المعارضون الخليفة من الصلاة بالمسجد والالتقاء بالرعية، أي منعوه من أداء مسئولياته التي بايعه المسلمون من أجلها، ثم عرضوا حياته – وهو الشيخ الذي جاوز الثمانين – للخطر حين منعوا عنه الطعام والماء. وقاوموا بالعنف من حاول تجاوز الحصار المضروب عليه أو إمداده بالغذاء، حتى لو كان علي بن أبي طالب أو أم المؤمنين حبيبة بنت أبي سفيان التي كادت تقتل وهي تحاول ذلك[4].

---

(1) وولى عثمان عبد الله بن عباس إمارة الحج، وانطلقت أم المؤمنين عائشة وغيرها إلى مكة ليشهدوا الحج، ويخرجوا من أجواء المدينة وممارسات الثائرين الشائنة بها (السابق ٤/ ٣٨٦-٣٨٧)

(2) سيف بن عمر: الفتنة وموقعة الجمل ٥٧-٦١، الطبري: السابق ٤/ ٣٤٨-٣٥١

(3) سيف بن عمر: السابق ٦٥-٦٧، الطبري: السابق ٤/ ٣٥١-٣٥٤، ٣٨٤-٣٨٥

(4) الطبري: السابق ٤/ ٢٨٥-٢٨٦

كان لا بد في هذه المرحلة من إيجاد مخرج للأزمة وبخاصة أن الخليفة رفض الاعتزال، ولم ير في هؤلاء المعارضين أهلية العزل أو التأمير، إذ ليسوا من أهل الحل والعقد، إنما هم جماعات هائجة تحركها دوافع شتى تتعاورها المشروعية والإدانة، بينما ظل هؤلاء مصرين على تحقيق مطلبهم بعزل الخليفة. مما عطل الحياة السياسية بالبلاد.

وهما لجأ الخليفة إلى الحل الأخير باستدعاء النجدات له من عماله والموالين له بالأمصار، فأدرك الثوار - لما وصلتهم الأخبار بذلك - خطورة ذلك التحرك، فضلاً عن انتهاء الحجيج من حجهم وتأهبهم للعودة إلى المدينة، وفيهم أنصاره الذين صمموا على الدفاع عنه، فبادر الثوار إلى قتل الخليفة ليوجدوا واقعًا جديداً ينشغل به الناس عنهم، و ربما كانت نجاتهم فيه[1].

هـ) استغلال النزعة المثالية للخليفة في مواجهة الثورة:

ومن المثير أن الخليفة الذي أفسح المجال للواقعية السياسية في إدارته ظلت مواقفه في مواجهة الثائرين عليه مصبوغة بالمثالية التي تشربها منذ إسلامه. ومن هذه المثالية الغالية موقفه من محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر الصديق اللذين أثارا الناس بمصر على الخليفة وعامله، حتى شكاهما عامل مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح إلى الخليفة، فرد عليه قائلاً: "أما ابن أبي بكر فيوهب لأبيه وعائشة، وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وربيبي[2]، وهو فرخ قريش فكتب إليه ابن سعد قائلاً: "إن هذا

---

(1) راجع سيف بن عمر: السابق ٢٦٨، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٧١، الطبري: السابق ٤/ ٣٨٧، ابن الجوزي: المنتظم ٥/ ٥٤

(2) هو ابن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، كان جده عتبة من زعماء قريش في الجاهلية، وقتل كافرًا يوم بدر، بينما كان أبوه من السابقين إلى الإسلام، وقد هاجر إلى الحبشة ثم المدينة، واستشهد في حرب مسيلمة الكذاب، وقد ربى الخليفة محمدًا هذا في بيته بعد استشهاد أبيه نظرًا لقرابته ومكانة والده (راجع ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٨٤، ابن الأثير: أسد الغابة ١/ ١١٥٩، خليفة ابن خياط: الطبقات ص ١٢، وراجع ترجمة محمد بن أبي حذيفة عند ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١٠-١١)

الفرخ قد استوى ريشه ولم يبق إلا أن يطير"[1]، ولم تمض عدة أشهر حتى كانت جموع من أهل مصر - الذين هيجتهم دعاية هذين الرجلين - يتجهون نحو المدينة لحصار الخليفة في شوال سنة ٣٥هـ[2].

وثار جماعة من أهل الكوفة بها - منتهزين فرصة غياب واليهم سعيد بن العاص عند الخليفة - يطلبون خلع سعيد ويثيرون الناس ضده، حتى تجمعوا ليردوه من خارج الكوفة، فاستجاب لهم الخليفة وخلعه، وولى عليهم من اختاروه: أبا موسى الأشعري، من غير تحقيق في أسباب نقمتهم عليه، ومن غير استجلاء لرأي زعماء الكوفة أنفسهم وأشرافها الذين لم يكونوا يوافقونهم في مسعاهم، بل إنه كتب إليهم: "والله لأفرشنكم عرضي، ولأبذلن لكم صبري، ولأستصلحنكم بجهدي، فلا تدَعوا شيئًا أحببتموه لا يُعصي الله فيه إلا سألتموه، ولا شيئًا كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتى لا يكون لكم عليّ حجة"[3].

وروي أن اثنين من مثيري الشغب بالكوفة هما عمير بن ضابئ وكميل بن زياد قد اتفقا - مع آخرين - على الذهاب إلى المدينة واغتيال الخليفة بها، فلما وصلا إليها جبن عمير، وترصد كميل للخليفة حتى مرَّ به، فلما التقيا ارتاب منه عثمان، ووجأ وجهه فخر ساقطًا، فقال: أوجعتني يا أمير المؤمنين، قال: أَوَلَست بفاتك؟ قال: لا والله. فاجتمع الناس وقالوا: نفتشه يا أمير المؤمنين فقال: لا، قد رزق الله العافية، ولا أشتهي أن أطَّلع منه على غير ما قال، ثم قعد الخليفة وطلب من كميل هذا أن يقتص منه، فلم يجد إلا أن يقول: تركت[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٣/ ٥١.

(٢) الطبري: السابق ٤/ ٣٥٨.

(٣) السابق ٤/ ٣٣٦.

(٤) السابق ٤/ ٤٠٣

ولما أدرك معاوية أمير الشام أن الخطر بات نازلاً بالخليفة لا محالة عرض عليه أن يسير معه إلى الشام وأهلها هم أهل طاعته، فقال: "لا أبيع جوار رسول الله بشيء، وإن كان فيه قطع خيط عنقي"، فعرض عليه معاوية أن يرسل إليه جندًا لحمايته، فأبى أن يقتِّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند يساكنهم، فقال معاوية: والله يا أمير المؤمنين لتغتالنّ أو لتغزينّ، قال: حسبي الله ونعم الوكيل"[1].

لقد ظل شعار الخليفة طوال هذه الفترة قوله: "إن رحى الفتنة دائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها"[2]. ولما طال اعتصام الثائرين لم يبادر إلى القوة في مواجهتهم، بل اجتهد لإقناعهم بخطأ ما يفعلون[3]، إلا أنه بعد مضي نحو شهر من اعتصامهم بالمدينة؛ وبعد أن ضيقوا عليه وحبسوه في بيته وحالوا بينه وبين القيام بمهام الخلافة؛ أرسل يستنجد بأهل طاعته بالأمصار، ويجهز بعض أنصاره للدفاع عنه بداره، لكن الوقت كان قد فات، فلما علم الثائرون بذلك شددوا عليه الحصار وقرر بعضهم قتله خوفًا من أن تعصف بهم جيوش الخلافة القادمة، أو جموع الحجيج الحانقين عليهم الذين قضوا حجهم وتجهزوا لنصرة خليفتهم، فلما أيقن الخليفة بالنهاية المحتومة منع أنصاره المحيطين به من الدفاع عنه مخافة أن يراق الدم المسلم بسببه دون فائدة[4]، وآثر أن يضحي بنفسه بدل أن يكون أول من سل السيف بين المسلمين، وقد استشهد في شهر الله الحرام ذي الحجة سنة ٣٥هـ وهو شيخ في الثانية والثمانين[5].

* * *

---

(١) سيف بن عمر: السابق ٥٣، الطبري: السابق ٤/ ٣٤٤-٣٤٥.، ابن الأثير: الكامل ٣/ ٥٠

(٢) الطبري: السابق ٤/ ٣٤٣.

(٣) السابق ٤/ ٣٥٤-٣٥٥

(٤) السابق ٤/ ٣٥٢-٣٥٤، ٣٨٥، ٣٨٧-٣٨٨، البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ١٣.

(٥) الطبري: السابق ٤/ ٤١٥-٤١٨

المبحث الثاني

المعارضة في خلافة علي رضي الله عنه

للمرة الثانية في التاريخ الإسلامي نجد حالة فراغ سياسي بخلو منصب القيادة بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه، وكانت الأولى بعد وفاة النبي ﷺ، ولأول مرة نجد استيلاءً محدودًا للمعارضة على السلطة؛ حيث ظلت المدينة خمسة أيام أميرها الغافقي بن حرب زعيم هؤلاء الثائرين.

وقد قام الثوار بدور بارز – هو متوقع بالطبع – في استخلاف عليٍّ[1]، بينما تجعل روايات أخرى كبار الصحابة الباقين بالمدينة هم أصحاب الدور الأبرز في ذلك[2]، ولا ريب أن كلا الفريقين بذل جهده لتجاوز ذلك الوضع الاستثنائي الذي وجدوا الأمة فيه.

ولم تكن ظروف بيعة علي رضي الله عنه طبيعية كبقية من سبقه من الخلفاء، فثمة خليفة شهيد؛ هناك من يترقب القصاص له، وقاتلوه ماثلون أمام الناس، يتعمدون أن يظهروا لهم سطوتهم ليرهبوهم؛ فلا يلح أحدهم على الثأر منهم. وقد توقف نفر من الصحابة عن البيعة لعلي، لا حطًا من شأنه واستخفافًا بأحقيته بالخلافة، بل لتخوفهم من الوقوع بالبيعة تحت سطوة هؤلاء الثائرين الذين غدوا أكابر أنصار الخليفة الجديد[3].

ولقد سارع علي رضي الله عنه – أو تسرع كما يرى البعض ومنهم المغيرة بن شعبة وعبدالله ابن عباس – بعزل ولاة عثمان عن الأمصار وتعيين غيرهم، مما أدى إلى مزيد من الشكوك والريب في هذه الأجواء العصيبة، فامتنع معاوية الذي لم يبايع الخليفة

---

(١) الطبري: السابق ٤٢٩-٤٣٢، ٤/ ٤٣٦.

(٢) السابق ٤/ ٤٢٧-٤٣١.

(٣) راجع: قائمة بأسمائهم لدى الطبري: السابق ٤/ ٤٢٩-٤٣١.

الجديد عن تنفيذ قرار العزل، ومضى والي اليمن يعلى ابن أمية ووالي البصرة عبدالله بن عامر محنقين إلى مكة التي غدت موئلاً للساخطين على سياسة الخليفة الجديد، وفيها أيضًا تجمع طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين وغيرهم من الذين يرون وجوب المسارعة بالقصاص لعثمان من قتلته بعدما فشلت مساعيهم لإقناع الخليفة بذلك، وقد كان يرى تأخير القصاص وتسكين الأمور وتهدئة الأوضاع أولاً، حتى يستقوي على أمر الخلافة والقصاص[1].

موقعة الجمل وتحول المعارضة السلمية إلى مسلحة:

وسرعان ما تحولت معارضة الخليفة وسياسته من طورها السلمي إلى الحالة المسلحة بسرعة غير مسبوقة في تاريخ هذه الفترة، فاتجه طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم لتنفيذ حد القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه في البصرة بأنفسهم، وكانت أهدافهم المعلنة تتمثل في الإصلاح بين الناس وإقامة حكم الله تعالى في قتلة الخليفة الشهيد[2]، فلا مجال إذن للزعم بأنهم خارجون على الخليفة الجديد، أو أنهم كانوا يطلبون الخلافة لأحد منهم، إلا أن يكون ذلك تغبيرًا عن المسكوت عنه في ضمائرهم، وتلك مجازفة خطيرة، فلم يعتد هؤلاء أن يكون لهم باطن مختبئ يخالف الظاهر المعلن، وقد استطاعوا بالفعل قتل ستمائة بصري ممن شاركوا في الثورة على الخليفة عثمان[3].

لقد كان ذلك تطورًا خطيرًا في السياسة الإسلامية، فللمرة الأولى يقوم بعض الرعية بالتحرك المسلح لينفذوا القانون بأنفسهم، متجاوزين الحكومة التي ظنوا بها التقاعس عن ذلك أو العجز عنه، ومن الطبيعي أن يرى الخليفة في ذلك افتئاتًا عليه، وخروجًا على الشرعية، ولو أنه غض الطرف عن ذلك لعُد مبررًا لأي أحد يجعل من

---

(١) السابق ٤/ ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٢-٤٤٤.

(٢) السابق ٤/ ٤٤٨-٤٦١.

(٣) السابق ٤/ ٤٦١-٤٧٤.

نفسه سلطة اتهام وقضاء، مما يفتح باب الفوضى على مصراعيه، لذلك فقد عدهم بغاة يجب قتالهم. والتقى الفريقان خارج البصرة في موقعة الجمل في جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ بعدما فشلت محاولات التوفيق بينهما، واتُّهم السبئية – أتباع ابن سبأ – وقادة الثوار على عثمان بإفشال تلك المحاولات، والسعي لإنشاب القتال بين فريقين من المسلمين لأول مرة في التاريخ الإسلامي، وإن كان من الجائز أيضًا أن نلقي بقدر من المسئولية على جيش الخليفة الذي ضم هؤلاء السبئية ولم يستطع أن يفرض عليهم سيطرته العسكرية اللازمة[1]، وعلى ذلك النوع من التفكير الذي يؤخر التفاوض إلى اللحظة الأخيرة، ويلجأ إليه في أجواء مشبعة بالنزوع إلى القتال، وفي حضرة حشدين من العسكر المجهز للحرب. وانتهت المعركة عن مقتل ستة آلاف أو عشرة آلاف – فيما يزعم الرواة – فيهم طلحة والزبير، الذي قتل خارج ميدان القتال[2].

لقد مضى على استشهاد عثمان نحو ستة أشهر حتى ذلك الوقت، ومنذ اللحظة الأولى كان واضحًا تباين الرؤى بين هذين الفريقين، ولكن الحوار المنظم بينهما تأخر حتى يكون حوارًا تحت قعقعة السلاح لعله يحقق لأي منهما فائدة، فلم يحقق إلا إراقة الدماء في أول حرب أهلية بين المسلمين.

معارضة معاوية وأنصاره:

بعد انتصار علي في معركة الجمل لم يبقَ أمامه معارض يناوئ سياسته بالحجاز، غير أن الخطر الأكبر جاءه من لدن معاوية أمير الشام، ابن عم الخليفة الشهيد والمطالب بالقصاص له، وهو الرجل الذي لم يبايع عليًا حتى الساعة، ولم ينفذ قراره بالعزل عن الشام، بل ظل فيه يحشد القوى خلف قضية القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، ولم يعجل كعجلة طلحة والزبير، ولم ينضم إلى حركتهم المتجهة نحو

---

(١) محمد الخضري: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ٢/ ٥٩

(٢) الطبري: السابق ٤/ ٣٩٥-٥٤٤.

العراق، مما يعطي انطباعًا عن نمط من الزعماء مكيث، يحسن الانتظار، ويترقب الفرصة المواتية، ويعطي المساحة الكافية للإعداد لخطواته.

وكان معاوية قد ولاه عمر وزاد في ولايته ثقة به، وازدادت مكانته في عهد عثمان، فظل عشرين سنة واليًا على الشام كله أو بعضه، لكن عليًا رضي الله عنه أول خلافته بادر إلى عزله مع عمال عثمان، رغم نصح بعض الصحابة وأمهات المؤمنين له بتركه أميرا على الشام[1]، حيث لم تصل إلى أحد منه شكاية معتبرة، وأهل ولايته راضون عنه لا يريدون به بديلاً، وقتالهم عليًّا في صفه – فيما بعد – أصدق دليل على ذلك، ومما لا ريب فيه أن من حق الخليفة اختيار عماله الذين ينفذون سياسته، غير أن ظروف هذه المرحلة العصيبة كانت تقتضي قدرًا كبيرًا من الحذر، ومن المؤكد أن هذه الخطوة قد زادت من مخاوف معاوية وشكوكه، وقد أدرك أن عزله عن الشام سوف يُخسره قوته وإمكاناته في المطالبة بالثأر لعثمان، ولذا قال ابن تيمية: "فليت عليًا تألَّف معاوية، وأمَّره الشام، وحقن الدماء"[2].

وكان رفض معاوية الرضوخ لقرار عليٍّ بعزله عن الشام، يمثل تحديًا خطيرًا للخليفة، وتوهينًا لسلطانه لدى الرأي العام، وهو لم يتسرع بإعلان رفضه قرار عزله، بل تريث شهرين حتى ضمن ولاء الشام له، وتحفز أهله للقصاص لعثمان، وبعد ذلك أرسل إلى الخليفة يرفض العزل علانية، في صفر سنة ٣٦هـ[3].

وطالب معاوية منذ البداية بالقصاص من قتلة عثمان، ولكنه لم يتحرك لمهاجمة جيش علي من الخلف حين تصدى لخصومه في موقعة الجمل، ولم يرسل عونًا لهؤلاء في سعيهم للقصاص لعثمان، مما أثار شبهة لدى بعض المؤرخين بأنه كان يعمل لحساب نفسه، فلم يرد أن يحارب معارك الآخرين، مما يطعن في ولائه لقضية

---

(١) السابق٤/ ٤١٠.

(٢) المنتقى من منهاج الاعتدال ٢٦٢.

(٣) الطبري: السابق ٤/ ٤٤٣.

القصاص، ويؤكد أن له مآرب أخرى[1]، ويمكن الرد على ذلك بأنه لم يكن في استطاعة معاوية تقديم دعم لهم – إن طلبوه – آنذاك، إذ كانت مصر بالقرب منه في قبضة أنصار عليّ، وكان إخلاء الشام أو إضعاف القوى المدافعة عنه بتحريكها نحو العراق أمرًا محفوفًا بالخطر، ومغريًا للجيش المصري بمهاجمتها.

لم يكن موقف معاوية بدعًا في امتناعه عن بيعة علي، فقد روي أن عددًا من الصحابة امتنعوا عنها – كما سبق بيانه – بالنظر إلى الظروف الاستثنائية التي تمت فيها، ولم يكن موقفه بدعًا في مطالبته بالقصاص لعثمان، فقد سبق أن طالب بها طلحة والزبير وعائشة، وخرجوا لتنفيذه بالفعل في البصرة، كما أن فريقًا من شيعة عثمان بمصر قد أمّروا عليهم معاوية بن حديج السكوني، وبايعوه على الطلب بدم عثمان، وهزموا الجيوش التي بعثها إليهم والي عليٍّ على مصر محمد ابن أبي حذيفة عدة مرات[2]، وكانت حجة معاوية في المطالبة بدم الخليفة الشهيد أكثر وجاهة من أولئك جميعًا، فهو ولي القتيل، لصغر أعمار أبناء عثمان، وقد وعد الله تعالى من كان كذلك بالنصر: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾[3]، بل إن بني أمية أقرباء عثمان كانوا يتهمون معاوية في تلبُّثه وتصبُّره وأناته بالتخاذل والضعف؛ وهم يرون غيره أسبق إلى محاولة الثأر لعثمان والتحرك من أجل قضيته[4].

عوامل نجاح معارضة الشام:

توافرت للمعارضة في بلاد الشام عدة عوامل قادتها إلى الصمود ثم النجاح، وهي عوامل كانت ترد على أذهان العقلاء في أيامها فيصرحون أحيانا بها أو ببعضها، لقد قال معاوية يومًا وهو يلخص أسباب انتصاره على على رضي الله عنه: "أُعِنْتُ على عليٍّ

---

(1) د. محمد حلمي محمد أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي ص٨١

(٢) الكندي: ولاة مصر ص ٤٢.

(٣) سورة الإسراء، من الآية ٣٣

(٤) الطبري: السابق ٤/ ٥٦٤.

بثلاث : كان رجلاً ربما أظهر سره، وكنت كتوما لسري، وكان في أخبث جند وأشده خلافًا عليه، وكنت في أطوع جند وأقله خلافًا عليَّ، ولما ظفر بأصحاب الجمل لم أشكّ أن بعض جنده سيعد ذلك وهنًا في دينه، ولو ظفروا به كان وهنًا في شوكته، ومع هذا فكنت أحب إلى قريش منه لأني كنت أعطيهم وكان يمنعهم، فكم من سبب قاطع إليَّ ونافر عنه"[1].

أ) بناء الرؤية الفكرية للمعارضة:

اعتمد معاوية في موقفه المعارض على أساسين: الأول اتهامه عليًا رضي الله عنه بالتستر على قتلة عثمان وقادة الثورة ضده، وهم قد أصبحوا قادة جيشه وكبار أمرائه، كالأشتر النخعي ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهم، والثاني: أن بيعة علي لم تنعقد بشكل يلزمه، لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالآفاق والأمصار، فلم يحضرها إلا قليل منهم، وامتنع عنها بعضهم كما مر بنا.

وقد لخص معاوية وجهة نظره في حواره مع رسل علي رضي الله عنه لما دعوه إلى الطاعة والجماعة، فقال: "فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتَنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة صاحبنا؟ ألستم تزعمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة"[2]. وقال رسول معاوية – حبيب بن مسلمة الفهري – شارحًا موقفه: ". فادفعْ إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس، فيكون أمرهم شورى بينهم؛ يولي الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم"[3].

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/ ٤٧٥

(٢) الطبري: السابق ٥/ ٦.

(٣) السابق ٥/ ٧.

أما الأساس الأول لموقف معاوية وهو اتهام عليّ بقتل عثمان أو التستر على قتلَتِه، فهو اتهام قديم شاع منذ أيام حصار عثمان، وربما لعب الثائرون عليه دورًا في إشاعته؛ لإعطاء شيء من المشروعية لحركتهم، بالزعم بأن كبار الصحابة ومنهم علي رضي الله عنه يوافقونهم على ثورتهم، كما مر بنا، وكان اتهام علي وبني هاشم بالضلوع في قتل عثمان وانتهاب سلاحه وماله مما يردده الشعراء ليحرضوا الناس عليه فقال قائلهم:

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه لا تحل مناهبه[1]

مما يمنعنا من افتراض إشاعة معاوية ذلك الاتهام بعد تمنّعه عن بيعة علي ليتخذه ستارًا لسعيه.

ومما قوّى ظنون معاوية وأهل الشام بوجود دور لعلي في قتل عثمان تأخره في القصاص له، وتقديم زعماء الثورة عليه في قيادة جيشه وإمارة البلدان، وزاد الأمور تعقيدًا أن بعض رسل علي إلى معاوية كانوا من المتهمين عنده بقتل عثمان أو التحريض عليه، مثل يزيد بن قيس وعدي بن حاتم[2]، وكان بعضهم يعمد إلى الإساءة إلى معاوية في مجلسه وشتمه، مثلما حدث من شبث بن ربعي التميمي على ما يزعم الرواة[3]، ولما أرسل معاوية إلى محمد بن أبي حذيفة - أمير مصر لعلي - يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن عديس وكنانة بن بشر - وهما ممن قتل عثمان - أرسل إليه يقول:" لو طلبت منا جديًا رطب السرة بعثمان ما دفعناه إليك[4]، وبلغ من سيطرة هؤلاء السفهاء على مجريات الأمور بالكوفة أن الناس كانوا إذا سمعوا أحدًا يذكر

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١١٧، والبيت ضمن أبيات للوليد بن عقبة، منها قوله:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه كما فعلت يومًا بكسرى مَرَازِبُه

(٢) الطبري: السابق ٥/ ٥-٦.

(٣) السابق ٥/ ٥٧٣-٥٧٤، ٥/ ٦.

(٤) الكندي: السابق ٤٢.

عثمان بخير ضربوه، وأن عليًا رضي الله عنه لما علم بذلك نهاهم عنه[1]، وكان بعضهم فيما بعد يتباهى بدوره في قتل عثمان والتحريض عليه لما التقى جيشا علي ومعاوية في صفين[2].

إشكالية آليات تولية الخلافة:

أما **الأساس الثاني** الذي اعتمد عليه معاوية في معارضته فهو أن بيعة علي لا تلزمه، لأنها لم تنعقد انعقادًا صحيحًا ببيعة أهل الحل والعقد الذين افترقوا في الأمصار، وهو قول خطير إذ يطعن في مشروعية توليه الخلافة من أساسها، بل إن رسوله إلى علي يسوِّي بينهما في المشروعية فيقول:" أما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا هي"، باعتبار أن أهل الشام فيهم عدد من الصحابة يؤيدون معاوية في مطلبه بالقصاص لعثمان، وأن عددًا من أهل المدينة لم يبايعوا عليًا، بل حاربه بعضهم في موقعة الجمل. إن القضية في أساسها تعود إلى السؤال حول ماهية هيئة أهل الحل والعقد المنوط بها تولية الخلفاء وعزلهم.

لم تكن الإجابة على ذلك السؤال موضع اختلاف وتنازع في عصر الرسول ﷺ وخلفائه الثلاثة الأولين، إذ هم الصفوة من السابقين إلى الإسلام، غير أنه بمضي الزمن كانت أعداد هؤلاء تتناقص بالموت، أو بالذهاب إلى الأمصار بعيدًا عن عاصمة الدولة، وسيعتزل كثير منهم هذه الفتن لأنه لم يستبِن له الصواب المطلق مع أحد الفريقين، حتى قال محمد بن سيرين: "هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين"، وقال الشعبي: "ما نهض في تلك الفتنة إلا ستة نفر بدريين ما لهم سابع"[3]، وهؤلاء الذين شاركوا في تلك الأحداث لم يكونوا جميعًا في صف علي، بل ناصر بعضهم طلحة والزبير، وانضم

---

(١) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٤٠/ ٢٩٤.

(٢) الطبري: السابق ٥/ ٤٦.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة ٣/ ١٨٦، الطبري: السابق ٤/ ٤٧، ابن الأثير: السابق ٣/ ١١٣

بعضهم إلى معاوية بالشام، وكان بعضهم في مصر، مع الوالي عليها أو ضده. فلما خرج علي من المدينة كان معه سبعمائة رجل، جلهم من الثائرين على عثمان القادمين من الأمصار، وليسوا من أهلها، بينما كان أصحاب الجمل في ألف رجل – وعامتهم من مكة والمدينة – يوم خرجوا من مكة إلى البصرة[1]، مما يدل على تهافت القول بأن الصحابة جميعًا كانوا يؤيدون عليًا، أو أن أهل المدينة كانوا آنذاك هم وحدهم أهل الحل والعقد، **ذلك القول صحيح من منظور تاريخي لا واقعي**. إن أهل الحل والعقد من حيث الواقع العملي كانوا موزعين بالأمصار، وأن اختلافهم حول مواجهة الفتنة واستقطابهم بفعل زعمائها زاد الأمر خطرًا.

ب) نجاح التعبئة السياسية :

اختار معاوية **صيغة الضغط السياسي** لتحقيق مطالبه بدل التحرك العسكري، وقد بدأ تنفيذ ذلك **بالتعبئة السياسية** لأهل الشام لتأييد قضية القصاص لعثمان، حيث عرض على منبر دمشق قميص عثمان مخلوطًا بدمائه وأصابع زوجته نائلة بنت الفرافصة الكلبية،وجزءًا من كفها الذي قطعه قتلة زوجها حين تصدت للدفاع عنه، وقد مما أجج مشاعر أهل الشام وأقوى قبائلهم: كلب التي تنتمي نائلة زوجة عثمان إلى بيت من أبرز بيوتها، ووصف رسول معاوية إلى عليٍّ الحال هناك بأنه "ترك ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان لا يرضون إلا بالقود"، أي القصاص [2].

ومن المؤكد أن تواصلاً حدث بين معاوية بالشام وأنصار عثمان بمصر الذين اعتزلوا تحت قيادة معاوية بن حديج السكوني وهزموا جيوش عامل مصر محمد بن أبي حذيفة الموالي لعلي عدة مرات[3]، وسوف يظل معاوية يعترف لابن حديج هذا

---

(١) الطبري: السابق ٤/ ٤٩٣-٤٩٤.

(٢) الطبري: السابق ٤/ ٤٤٤.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٦/ ١١-١٢

فالفضل[1]، فقد قام بدور بارز في شغل جند مصر المؤيد للخليفة عن مهاجمة الشام، ولو نحقق ذلك لوقع جيش معاوية بين فكي الرحى.

وهكذا حققت التعبئة السياسية وتماسك الرؤية الفكرية لمعاوية وأنصاره نجاحًا لقضية تعجيل القصاص لعثمان، فأصبحت تجد لها أنصارًا كثيرين، ليس فقط في الشام بل في مصر حيث معاوية بن حديج وأنصاره، وفي الحجاز حيث كانت أسرة بني أمية القوية تجد أنصارًا لها في مكة التي غدت موئل المطالبين بالقصاص، بل في المدينة نفسها، وفي البصرة التي ناصرت جيش طلحة والزبير في موقعة الجمل، والتي اقتصَّت بالفعل ممن شاركوا في الثورة على عثمان من أبنائها.

ومن المثير أن نجد روايات تذكر أن حجة معاوية كانت تجد أصداء لها في معسكر عليّ وبين أقرب الناس إليه، فولده الحسن كان يقول:"وأيم الله يا أبت ليظهرن عليك معاوية لأن الله قال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾[2]، وكان ابن عمه عبد الله بن عباس يحتج بهذه الآية ويقول: "ما زلت موقناً أن معاوية يلي الملك من هذه الآية"[3]، وكان ابن عباس يخطب فيقول:"لو لم يطلب الناس بدم عثمان لرُموا بالحجارة من السماء"[4]! وسواء أصحت هذه الروايات أم أصابتها مبالغة الرواة المعهودة فإن دلالتها تظل قائمة، فقد كانت حجة معاوية تجد لها أصداء في جنبات المجتمع الإسلامي.

---

(1) الطبري: السابق ٥/ ٣١٢

(٢) سورة الإسراء من الآية ٣٣، راجع ابن قتيبة (ينسب إليه):الإمامة والسياسة ١/ ٤٩

(٣) ابن كثير: السابق ٨/ ٢١، ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/ ٢٩٩، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٤٠/ ٤٨٧

(٤) ابن عساكر: السابق ٤/ ٤٥٩

ج) **تمام الولاء للقيادة وأسبابه :**

كان ولاء أهل الشام لمعاوية وتأييدهم قضيته أمرًا لا مراء فيه، فقد طالت فيهم ولايته، وأصهر لأقوى قبائلهم: كلب - مثلما فعل عثمان من قبل - فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبية، وأنجب منها ولده يزيد[1].

وبمضي الزمن لم يعد أهل الشام يتصورون أن تنضوي بلادهم تحت حكم أهل العراق، وفيهم قتلة عثمان الذين لا تؤمن غائلتهم، أو أن تذهب عنهم إمارة معاوية وبيته الذي أصبح على نحو من الأنحاء مخلوطًا بوشائج الرحم والقربى والمصلحة مع أقوى قبائلهم. وقد عبر شاعرهم عن هذه النزعة الإقليمية حين قال:

أرى الشام تكره أهل العراق وأهل العراق لهم كارهينا[2]

وبينما كانت الشام تحتشد خلف دعوى معاوية كان علي رضي الله عنه بالكوفة يعاني اختلاف أهواء أهلها وتقاعسهم، يستنهضهم للقتال فيأبون عليه، حتى كان يناديهم في خطبته قائلا: "يا أشباه الرجال ولا رجال، حُلوم الأطفال، وعقول رَبَّات الحِجال، لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفة جرتْ والله ندمًا... قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحًا، وشحنتم صدري غيظًا... وأفسدتم عَلَيّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع"[3].

ولا يعود ولاء جند الشام لأميرهم إلى الأسباب القبلية والسياسية فحسب، فقد اعتادت قبائل الشام الخضوع لسلطة مركزية منذ زمن بعيد، لا ترى في ذلك أنفة ولا

---

(1) راجع ابن حبان: الثقات ٢/ ٣٠٦، وانظر حول تعصب قبيلة كلب لمعاوية وولده (السابق ٥/ ٥٦٣)

(2) الأبيات لكعب بن جعيل، راجعها في (الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٥٩٥)

(3) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١، ص ٧٥، الخطبة رقم ٢٧

انتقاصًا لقدرها، بخلاف ما كانت عليه القبائل الوافدة إلى العراق التي طالما حالت طبيعتها القبلية وأنفتها دون الخضوع لحكومة منظمة، وهو ما سيترك أثره على معسكري علي ومعاوية حين ينشب القتال بينهما، حيث بددت الخلافات في معسكر عليٍّ رضي الله عنه كل فرص النصر، وقد عبر معاوية عن ذلك بقوله عن عليّ: "وكان في أخبث جند وأشده خلافًا عليه، وكنت في أطوع جند وأقله خلافًا علي"[1].

وهكذا غدا تعجيل القصاص لعثمان قضية تتشابك فيها العوامل الدينية والقبلية والسياسية والإقليمية عند أهل الشام ومعاوية، ولم تعد بأي حال قضية أمير طموح نهّاز للفرص، كما يصورها كثير من المؤرخين[2].

د) الطبيعة المتجانسة لمعسكر الشام:

وعلى المستوى العملي كان جند الشام أعظم تجانسًا وانقيادًا لمعاوية، وإخلاصًا لقضيته، مما كان عليه أهل العراق لعلي، فقد كانت القبائل العربية بالشام تقطن فيه منذ أمد بعيد قبل الإسلام، ولم تعش القبائل الوافدة عليهم بعد الفتح معزولة عنهم، بل انصهرت معهم في مدنهم وقراهم القائمة بالفعل على شكل مدني لا قبائلي، وهو عكس ما كان عليه الوضع بالعراق حيث عاشت كل قبيلة في حيها الخاص بها.

ويمكن أن ينضاف مظهر جديد إلى مظاهر التجانس الاجتماعي للمعسكر الشامي وهو حالة التقارب النفسي التي كان يعيشها بالمقارنة بحال الانقسام والتشعب في معسكر علي، حيث توزع أهله بين أهواء وقناعات شتى، فقد كان ضمن معسكر العراقيين جند البصرة الذين تأثروا بالدعوة للقصاص لعثمان، وبمن عاونوا طلحة

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/ ٤٧٥

(٢) راجع ابن قتيبة (ينسب إليه): الإمامة والسياسة ١/ ٩٨، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠، ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية ٩٠-٩١، العقاد: عبقرية علي ص ٨١، محمد عبد الله عنان: تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة في المشرق ص ١٦، راضي آل ياسين: صلح الحسن ٥٧-٥٨، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص ١٣٠، دوزي: تاريخ مسلمي إسبانيا ١/ ٤٥

والزبير وعائشة في مسعاهم لذلك بتسليم قتلة عثمان إليهم ليقتلوهم!! وقد غدوا الآن في جيش علي مطلوب منهم محاربة من يرفعون لواء القصاص لعثمان. وبالبصرة قبائل عدة تعرض أبناؤها للقتل على يد جيش علي وأنصاره في موقعة الجمل، فقتل منهم ألوف، مما أوجد لدى بعضهم حزازات ليس من السهل تجاوزها والتوحد مع خصوم الأمس على صعيد واحد، وتحت قيادة واحدة.

وكان في جيش علي جماعة من القراء الذين اتَّهموا من قبل عثمانَ وعمالَه في دينهم، وتشددوا في أحكامهم تأثرًا بفهمهم الحرفي للنصوص الشرعية، وهو فهم ذو نزعة بدوية جافية، سوف تظهر آثارها فيما بعد حين يتبلور فكر الخوارج ومبادئهم[1]، وقد كان من هؤلاء بعض زعماء الثورة على عثمان. وكان منهم من ينظر باستخفاف إلى أقدار كبار الرجال وفيهم علي رضي الله عنه[2]. ولم يكن جيش بهذا التكوين مهيأ للمصابرة والمطاولة في ساحة الحرب، إذ من الممكن أن تتكشف أسباب الضعف فيه نتيجة تواصل الضغط عليه، وهذا ما حدث بعد عدة أيام من القتال المتواصل في معركة صفين في صفر سنة ٣٧هـ، حيث انقسم الجيش على نفسه إزاء الدعوة إلى التحكيم.

هـ) بدء أهل العراق بالقتال:

واصل معاوية إصراره على منهجه في الضغط السياسي على عليّ رضي الله عنه دون اللجوء إلى الحلول العسكرية الأثيرة في ذلك الوقت، وقد ظل معاوية وجنده في حدود الشام لا يغادرونها حتى حرك عليّ جيوشه نحو الشام، مما جعل معاوية وأهل الشام ينظرون إلى أنفسهم كطرف معتدى عليه، ودفعهم ذلك إلى الاستقتال في معركة

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند ٣/ ٤٨٥

(٢) أنشد أحدهم عقب استخلاف علي: خذها إليك واحذرن أبا الحسن إنا نمر الأمر إمرار الرسن (الطبري: السابق ٤/ ٤٣٦). ، وأهان بعضهم عائشة عقب موقعة الجمل، فأنشد أحدهم: "جزيت عنا أما عقوقا ..."، وقال الآخر: "يا أمنا توبي فقد خطيت ...."(راجع الطبري: ٤/ ٥٤٠)

صفين "لظنهم أن عسكر عليّ فيهم ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنهم يقاتلونهم دفعًا لصيالهم عليهم، وقتال الصائل جائز، لهذا لم يبدءوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك، ولهذا قال الأشتر: "إنهم ينصرون علينا لأنا نحن بدأناهم بالقتال"[1].

و) الإفادة من التحكيم ونتائجه:

صوَّرت معظم الروايات التحكيم الذي نادى به عمرو بن العاص في موقعة صفين على أنها خدعة منه، وتآمر بينه وبين معاوية لشق صف الجيش العلوي، وتحوط الشكوك ما لدينا من روايات في هذه الفترة، فقد رويت معظمها عن طريق رواة شيعة بارزين مثل أبي مخنف لوط بن يحيى – راوية الطبري الأثير في هذه الأحداث – ونصر بن مزاحم المنقري، فجاءت في مجملها مصورة بطولة جيش العراق وتخاذل جيش الشام، ثم مجيء الاقتراح بالتحكيم كإنقاذ لذلك الجيش من الهزيمة الماحقة، وهو ما يبدو مستبعدًا إزاء شراسة القتال الذي استمر ثلاثة أيام، حيث كانت الحرب سجالاً بين الفريقين[2]، وسقط من كل منهما قادة أعلام[3]، حتى تكشفت أحداثها عن الدعوة إلى التحكيم، والحقيقة أن ثمة مبادرات عديدة للصلح ظهرت من كلا الجيشين قبل الدعوة للتحكيم، وكان وراءها إحساس مفعم بالإشفاق على أمة الإسلام ومصلحتها العليا[4]، ومن المرجح أن عليًا قد قبل بتحكيم كتاب الله أول ما طلبه أهل الشام، وهو ما جاءت به روايات الحديث الصحيح عن أحد رجالات عليّ: «فقال عمرو بن العاص لمعاوية أرسل إلى عليّ بمصحف، وأدعه إلى كتاب الله فإنه لن

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٠٢-٢٠٣، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٥/ ٧٢.

(٢) الطبري: السابق ٥/ ١٥-٣٤.

(٣) السابق: ٥/ ٣٦-٣٧، ٤١-٤٤.

(٤) راجع السابق ٥/ ١٤، ٢٦-٢٧، الأصفهاني: الأغاني ٢٢/ ١١، البيهقي: المحاسن والمساوئ ١/ ٥٤، الدينوري: السابق ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩، المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٢، نصر بن مزاحم: وقعة صفين ٥٤٧-٥٤٩، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ٢/ ٢١٤-٢١٥.

يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران:٢٣] فقال علي: «نعم أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله»، وتصف بقية الحديث كيفية ظهور الخوارج آنذاك غضبًا من قبول علي التحكيم [١]، وهو ما يبدو أكثر إقناعًا في تبرير موقف الخوارج من عليّ فيما بعد، ذلك الموقف الذي يبدو متسقًا مع ما عرف عن هذه الطائفة التي لم تنبت فجأة، وإنما تمتد جذورها الفكرية ورموزها القيادية إلى جماعات الثائرين على عثمان والرافضين لمحاولات المصالحة والتفاهم.

لقد كان رفع المصاحف وطلب التحكيم حلاً مشرفًا للمأزق الصعب الذي وجد فيه الجيشان نفسيهما، وقد انتهى إلى عزل كل من الرجلين المتصارعين – علي ومعاوية – وتوقيع اتفاق بذلك، وهذا هو الأرجح بين الروايات المكذوبة التي تزعم أن الحكمين أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص – اكتفيا بإلقاء الخطب، فتشاجرا وتسابّا؛ بعدما خدع عمرو أبا موسى، فخلع عليًا وثبّت معاوية[٢].

ويبدو مستغربًا أن مناقشات التحكيم لم تتطرق إلى لبّ الخلاف بين الرجلين أو الفريقين، ألا وهو تحقيق القصاص من قتلة عثمان أو تأخيره، لقد اتجهت المناورة – ومن ثم النتائج – مباشرة إلى التساؤل عمن يحق له أن يكون خليفة، رغم أنه من الناحية السياسية الواقعية لم يكن هناك إلا خليفة واحد، ولم يكن معاوية حتى ذلك الوقت يدعي الخلافة، أو يطالب بها، وقد يعد ذلك التحول نجاحًا منقطع النظير من عمرو بن العاص ممثل معاوية؛ الذي استطاع التسوية في الأرضية السياسية بين الرجلين، غير أن القضية الأساسية التي شغلت الأمة على مدار سنوات وهي مقتل عثمان ومصير قتلته تمَّ تجاوزها، ولأن ذلك يبدو غير معقول فربما أمكن القول بأن

---

(١) أحمد: المسند ٣/ ٤٨٥، النسائي: السنن الكبرى ٦/ ٤٦٣، والآية من سورة آل عمران، رقم ٢٣

(٢) راجع: الطبري السابق ٥/ ٦٧-٧١، المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٠٧-٤١٢، فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ٢٨٥، ابن العربي: السابق ١٨٠-١٨١.

كلا الحكمين نظر إلى القضية من خلال منطق الرجلين المتصارعين، فإن تم اختيار علي وعزل معاوية فإن ذلك يعد انتصارًا لمنطقه القائل بتأخير القصاص، وإن تم اختيار معاوية فإن ذلك يعد إعلاء لمنطق تعجيل القصاص، وربما ساعد على ذلك حقيقة أن الزعماء الكبار الذين اتُّهموا بقتل عثمان أو الثورة عليه قد غابوا عن مسرح الأحداث، فقد قتل الأشتر النخعي وعمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهم في أثناء الصراع.

لقد ترك الحكمان الأمر شورى بين المسلمين، والذي ظل غائمًا في هذا الموقف هو تعيين أهل الحل والعقد الذين يمكن أن يناط بهم اختيار الخليفة الجديد، وهذا السكوت عن تحديد المراد بهذا المصطلح يحمل في طياته الإحساس بصعوبة تولية خليفة جديد يكون قادرًا على فرض سلطته الكاملة على بلاد الإسلام وتُجمع الأمة كلها عليه في هذه الظروف المضطربة، كما كان يحمل في طياته بذور الفشل للتحكيم ذاته، إذ لم يكن من وراء الحكمين قوة من المسلمين تستطيع تنفيذ حكمها[1].

ز) تصدع جيش علي بعد التحكيم:

ومن المهم هنا أن نشير إلى خطورة التصدع الذي أصاب جيش علي بعد قبوله التحكيم، حيث اتهمه الخوارج بالكفر لأنه حكَّم في كتاب الله الرجال، فكان ذلك بداية انقسام بغيض في جيش العراق، وتصور رواية المسعودي خطورة تداعيات التحكيم على جيش عليٍّ حيث «تباغض القوم جميعًا، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض، يتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه»[2].

ونظر عليّ إلى الخوارج أول مخالفتهم له على أن حركتهم معارضة سلمية، فأعلن سياسته تجاههم بعدما جابهوه في غلظة واتهموه بالكفر، وقال في خطبة له:" أما إن

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي ١/ ٣٨٤

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢/ ٣٥٢

لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدءونا"[1]، ولكنه اضطر لقتالهم بعدما عاثوا في الأرض فسادًا، واستعرضوا الناس يفتشون عن عقائدهم، ويقتلون من خالفهم، وكانت هزيمتهم في موقعة النهروان سنة ٣٨هـ قاصمة[2]، غير أنها لم تقض تمامًا على خطرهم الذي استمر في العصور التاريخية التالية، وقد استطاع أحدهم – ويدعى عبد الرحمن بن ملجم – قتل عليٍّ وإنهاء خلافته[3]، لينتهي معها عمليًا عصر الراشدين.

وكأن هذه النهاية الدامية تلخص المشهد كله؛ مشهد المعارضة في عصر الراشدين، الذي شهد شرعية المعارضة السلمية ونزاهتها، وشهد تطورها لتتخذ المنحى الجماعي بعد الفردي، وتنتهج الوسائل العنيفة بعد وسائلها السلمية، وتستغل في ذلك مثالية ذلك الجيل الفريد من الحكام، وحرصهم على حقن دماء المسلمين، وترفعهم عن التحوط الشديد في حراسة ذواتهم، أو استباق معارضيهم إلى العنف معهم، وإن دلت الدلائل الواضحة على سوء نيات بعضهم، أو إمكان استغلالهم من أعداء الأمة في ظرفها التاريخي الدقيق.

***

---

[1] الطبري: السابق ٥/ ٨١-٨٢

[2] السابق ٥/ ٨٤-٩٢

[3] راجع السابق ٥/ ١٤٣-١٥١

الخاتمة

تعددت العوامل التي أدت إلى تشجيع ظهور المعارضة في الفكر الإسلامي، وكان بعضها يتصل بالجانب التشريعي حيث أسهم تشريع الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمان الحريات الإنسانية - ومنها حرية الفكر والتعبير في إطاره القيمي الإسلامي – في تعزيز إقرار هذه المعارضة وحمايتها، وهو ما أكدته الممارسات السياسية للنبي ﷺ وخلفائه الراشدين، سواء في جانب الشورى أو الفعل.

وبشكل عام يمكن تمييز نوعين من المعارضة السياسية في التجربة الإسلامية: أولهما معارضة تنطلق وتتأسس على مرجعية إسلامية، فتظل مرتبطة بالشريعة مستهدفة النصح العام والمحافظة على وحدة الأمة والتغيير السلمي المتدرج، والنوع الثاني هو المعارضة التي لا تنطلق من أرضية الشريعة، وقد تستهدف تجزئة الأمة الواحدة والاستقواء – إن تيسر لها ذلك – بأعدائها، كما رأينا في بعض صور الردة زمن أبي بكر رضي الله عنه.

لقد شهدت واقعة استخلاف أبي بكر ممانعة لاستخلافه من بعض الفعاليات السياسية، فأقر الصديق حقهم في ذلك، وفي خلافته وجدنا معارضات متعددة لبعض سياساته واجتهاداته، وهي معارضة تراوحت بين الفردية والجماعية، مع احتفاظها بطابعها السلمي ومرجعيتها الإسلامية، خلا ما كان من حركات الردة التي لا تعد معارضة إسلامية في مرجعيتها وغاياتها وممارساتها، حيث تحالف مانعو الزكاة مع المتنبئين وبقايا الوثنيين مستهدفين الانفصال عن الدولة الإسلامية.

تسارع التطور الاجتماعي للدولة في خلافة عمر بسبب اتساع الفتوحات ووفرة الغنائم وبروز دور القبائل العربية في الأمصار الجديدة، وواجهه عمر بالتطوير الإداري للدولة وتوسيع دوائر الشورى والالتزام بالمثالية الإسلامية التي لم تدع كبير مجال لبوادر التمرد، رغم شعور الخليفة بها في أخريات خلافته، ومن أبرز صور

المعارضة في خلافته مطالبة بعض زعماء الفتح بتقسيم الأراضي المغنومة بين الفاتحين، والشكوى المتكررة من بعض ولاة الأمصار المشهود لهم بالكفاءة.

أسفرت التطورات الاجتماعية عن نتائجها في النصف الثاني من خلافة عثمان، ولم تستطع إدارته استيعاب فوران القبائل وطموحاتها، وبخاصة مع تراجع حركة الفتوح، وانتهت بذهاب مئات من الأمصار إلى المدينة واعتصامهم بها، مطالبين بعزل الخليفة الذي لم يقتنع بدعواهم لأنهم لا يمثلون أهل الحل والعقد المنوط بهم ذلك، وآل الأمر إلى منعهم الخليفة من ممارسة عمله، ثم أحسوا بالخطر القادم حين تحركت بعض جيوش الأمصار لنجدة الخليفة، فسارعوا بقتله ليشغلوا المسلمين بواقع جديد.

جاءت المعارضة مواكبة لبدء خلافة علي، فامتنع عن بيعته عدد من المهاجرين والأنصار تخوفًا من الوقوع تحت سطوة الثوار على عثمان الذين أظهروا أنهم أشد أنصار عليّ، ثم جاءت معارضة من نادوا بسرعة القصاص من قتلة عثمان، واصطدم الخليفة معهم في معركة الجمل الدامية، ثم كانت معارضة معاوية هي الأشد والأخطر، وتوافرت لها فرص عديدة للنجاح فانتهزتها، وساءت الأوضاع بالعراق موطن خلافة عليّ، وانتهي الأمر نهايته الدامية باستشهاده رضي الله عنه على يد الخوارج، ثم تنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية، وبذا انتهي عصر الراشدين لتبدأ صفحة الحكم الأموي.

ويدل الخط البياني للأحداث على تصاعد حدة المعارضة في عصر الراشدين بمضي الزمن، وتنوع وسائلها وتجدد آليات عملها واتساع دائرة تأثيرها، وأن سلوك الراشدين تجاهها ظل وفيًا لالتزامهم بحرية التعبير ودوام الحوار وإيثار التواصل السلمي، لكن تطور المعارضة منذ مقتل عثمان صبغها بصبغة العمل المسلح رغم أن شرائح أخرى ظلت تؤثر المعارضة السلمية المشفقة على وحدة الأمة.

يستطيع الباحث التاريخي المعاصر أن يستنبط أسباب هذا التطور المؤسي في سير المعارضة التي تحولت إلى العمل المسلح وسلوك الخلافة تجاهها، فالنظام السياسي

آنذاك كان بحاجة ماسة إلى تطوير مؤثر يناسب إدارة دولة عالمية اختلفت أجناسها وأديانها والأصول الحضارية لسكانها، وأبرز هذه المؤسسات التي كانت تحتاج إلى تفكير جمعي لتطويرها مؤسسة أهل الحل والعقد، التي كان يجب أن تتسع لتشمل زعامات الفعاليات السياسية الجديدة والأمصار القوية.

❊❊❊

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦ هـ):

(١) - النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، دار الباز، مكة المكرمة، (د.ت).

ابن الأثير: محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ):

(٢)- أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٣)- الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت ٣٥٦هـ):

(٤)- الأغاني، ط٦، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦ هـ):

(٥)- صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا،، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٣٧٩هـ):

(٦)- أنساب الأشراف، ج٥، طبعة القدس، سنة ١٩٣٦م.

(٧)- فتوح البلدان، نشرة دي غويه، بريل، ليدن، سنة ١٨٦٦م.

البيهقي إبراهيم بن محمد (ت ٣٢٠هـ):

(٨)- المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت ٤٥٨ هـ):

(٩)- السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الباز، مكة المكرمة، سنة ١٤١٤هـ

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي (ت ٢٧٩ هـ):

(١٠) ـ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت)

ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ):

(١١) ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام. جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، ط١، مطابع الرياض، سنة ١٣٨٣هـ

(١٢) ـ منهاج السنة النبوية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، ط١، مؤسسة قرطبة، سنة ١٤٠٦هـ

الثعالبي: أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ هـ):

(١٣) - ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار المعارف، القاهرة، سنة١٩٦٥م

الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ):

(١٤) - رسالة "العثمانية"، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة، سنة ١٩٥٥م

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٧٩ هـ):

(١٥) - سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، تحقيق. حمزة النشرتي وعبد الحفيظ فرغلي وعبد الحميد مصطفى، المكتبة القيمة، (د.ت)

(١٦) - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٢م.

الجويني: أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت ٤٧٨ هـ):

(١٧) - غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق د. مصطفى حلمي ود. فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة، الإسكندرية، سنة ١٩٧٧ م .

ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤ هـ) :

(١٨) - الثقات، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، ، ط١، دار الفكر، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

(١٩) - صحيح ابن حبان، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، ط١، دار الفكر، سنة ١٣٩٥هـ

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ):

(٢٠) - الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤١٢هـ.

(٢١) - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، راجعه وأشرف على الطباعة قصي محب الدين الخطيب،، ط٣، المكتبة السلفية، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ.

ابن أبي الحديد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد(٥٨٦-٦٥٥ ، أو ٦٥٦ هـ) :

(٢٢)- شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، سنة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

ابن حزم الظاهري أبو محمد علي بن أحمد (٣٨٣- ٤٥٤ هـ) :

(٢٣)- الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٣٩٥هـ

ابن حنبل: الإمام أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١ هـ):

(٢٤)- الزهد، ط٢، دار الريان للتراث، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م

(٢٥) ـ المسند، مؤسسة قرطبة، مصر، تحقيق شعيب الأرناؤوط، (د.ت).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ):

(٢٦) ـ تاريخ ابن خلدون، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م

(٢٧)ـ المقدمة، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، ط٣، دار نهضة مصر، القاهرة، سنة١٤٠١هـ

ابن خياط: أبو عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري(ت ٢٤٠هـ):

(٢٨) ـ الطبقات، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، ط٢، دار طيبة، الرياض، سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت ٢٥٥):

(٢٩) ـ سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ.

الدياربكري، حسين بن محمد (توفي في القرن السادس عشر الميلادي):

(٣٠) - تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت، سنة ١٢٨٣هـ

الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ):

(٣١) - الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ومراجعة د. جمال الدين الشيال، ط١، مكتبة الحلبي، سنة ١٩٦٠م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):

(٣٢) - المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو اختصار لكتاب منهاج السنن النبوية لابن تيمية، تحقيق محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة سنة ١٣٧٤هـ.

ابن رجب الحنبلي: أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ):

(٣٣)- الاستخراج لأحكام الخراج، تحقيق: السيد عبد الله الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)

ابن سلام: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ):

(٣٤) ـ غريب الحديث، ط١، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد الدكن، الهند، سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م

ابن سعد: محمد بن سعد البصري الزهري (ت ٢٣٠هـ):

(٣٥) ـ الطبقات الكبرى، تحقيق د. حمزة النشرتي وزميليه ، المكتبة القيمة، (د.ت).

سيف بن عمر: سيف بن عمر الضبي الأسدي (ت ٢٠٠هـ):

(٣٦) - الفتنة ووقعة الجمل، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش، ط٦، دار النفائس، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ):

(٣٧) - تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م.

ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة (ت ٢٦٢هـ):

(٣٨) -أخبار المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط٢، دار الأصفهاني، جدة، (د.ت)

الشوكاني: محمد بن علي بن محمد الصنعاني (ت ١٢٥٠ هـ):

(٣٩) - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، دارة الطباعة المنيرية، (د.ت)

ابن طباطبا العلوي، محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ)

(٤٠) - الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت (د. ت).

الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (ت ٣٦٠ هـ):

(٤١)- المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ):

(٤٢) - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، سنة ١٩٧٧م

(٤٣)- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ

ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ):

(٤٤)- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٩٩٥م

عبد الجبار بن أحمد الأسدأبادي القاضي المعتزلي (ت ٤١٥ هـ):

(٤٥)- المغني في أبواب التوحيد والعدل، تحقيق د. عبد الحليم محمود وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (د. ت)

ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي (ت ٢٥٧ هـ):

(٤٦) - فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، سنة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري (٤٦٨ - ٥٤٣هـ):

(٤٧) - العواصم من القواصم، تحقيق: د. محمد جميل غازي، ط٢، دار الجيل، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١ هـ):

(٤٨) - تاريخ مدينة دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، مج ٤٠، ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه، تحقيق سكينة الشهابي، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ):

(٤٩) - إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦ هـ):

(٥٠) - (ينسب إليه) الإمامة والسياسة، الطبعة الأخيرة، مكتبة الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٨هـ

(٥١) - غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، طبعة وزارة الأوقاف العراقية، سنة ١٣٩٧هـ

ابن قدامة: عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (ت٦٢٠ هـ):

(٥٢) - المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط١، دار الفكر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ):

(٥٣) - الجامع لأحكام القرآن، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٦٥هـ - ١٣٦٧هـ

ابن القيم: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (ت ٧٥١هـ):

(٥٤) ـ زاد المعاد في هدي خير العباد، ط١، دار الريان للتراث، القاهرة، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م

ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ):

(٥٥) ـ البداية والنهاية، حققه وراجعه محمد عبد العزيز النجار، ط١، دار الغد العربي، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٥٦) ـ تفسير القرآن العظيم، ط١، دار الغد العربي، القاهرة، سنة١٤١١هـ / ١٩٩١م

الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف (ت حوالي ٣٥٠هـ):

(٥٧) - ولاة مصر، تحقيق: د. حسين نصار، دار صادر، بيروت، (د.ت)

ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ):

(٥٨) - سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، (د.ت)

المتقي الهندي: علاء الدين علي بن حسام الدين الهندي (ت٩٧٥هـ):

(٥٩) ـ كنز العمال، مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨٩م.

المحب الطبري: أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد الطبري (٦٩٤هـ)

(٦٠) ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، تحقيق عيسى عبد الله محمد مانع الحميري، ، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٩٦م

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ):

(٦١) - مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١ هـ):

(٦٢) - صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت)

ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ):

(٦٣) - لسان العرب، ط١، دار صادر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ

المنقري: نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ):

(٦٤) - وقعة صفين، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، المؤسسة العربية الحديثة بمصر، سنة ١٣٨٢هـ.

النسائي: أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي (ت ٣٠٣هـ):

(٦٥) - السنن الكبرى، تحقيق د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٧م.

النسفي: عبد الله ابن أحمد بن محمود (ت ٧١٠هـ):

(٦٦) - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، طبعة القاهرة، سنة ١٣٤٤هـ.

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣ هـ):

(٦٧) - السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية القاهرة، (د.ت).

ياقوت: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ):

(٦٨) - معجم البلدان، طبعة دار الفكر، بيروت، (د.ت).

يحيى بن آدم: أبو زكريا بن سليمان (ت ٢٠٣ هـ):

(٦٩) - كتاب الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤ هـ):

(٧٠) -تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٠م.

أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢ هـ):

(٧١) - كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).

ثانيًا: المراجع:

إلياس شوفاني (دكتور):

(٧٢) - حروب الردة، دراسة نقدية في المصادر، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت، سنة ١٩٩٥م

حسن إبراهيم (دكتور):

(٧٣) - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط١٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٣٩م.

حمدي شاهين (دكتور):

(٧٤) - دراسات في عصر الخلفاء الراشدين، ط١، دار الهاني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٥م.

راضي آل ياسين:

(٧٥) - صلح الحسن عليه السلام، ط٤، بيروت، سنة ١٩٧٩م.

شكري فيصل (دكتور):

(٧٦) - المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٨١م

عباس محمود العقاد:

(٧٧) - عبقرية خالد، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م

(٧٨) -عبقرية علي، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

علي حسني الخربوطلي (دكتور):

(٧٩) - تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٥٩م

عماد الدين خليل (دكتور):

(٨٠) - دراسة في السيرة، ط١٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٩٦م

محمد حسن شراب:

(٨١) - المدينة النبوية، فجر الإسلام والعصر الراشدي، ط١، دار القلم، دمشق، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

محمد حلمي محمد أحمد (دكتور):

(٨٢) - الخلافة والدولة في العصر الأموي ، ط١، القاهرة، ١٩٧٤م

محمد الخضري: (الشيخ):

(٨٣) - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، ط٥، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، سنة ١٣٦٦هـ.

محمد الطيب النجار (دكتور):

(٨٤) - الموالي في العصر الأموي ، ط١ ، دار النيل للطباعة ، القاهرة، سنة ١٩٥٤م .

محمد عبد الله عنان:

(٨٥) - تاريخ الجمعيات السرية الهدامة في المشرق، دار أم البنين للنشر والتوزيع، (د.ت).

محمد عمارة (دكتور):

(٨٦)- الإسلام وحقوق الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٨٩، الكويت، سنة ١٩٨٥م

(٨٧) - الإسلام وضرورة التغيير، سلسلة اقرأ، رقم ٦٦٨، دار المعارف، القاهرة، سنة ٢٠٠١م

محمود شيت خطاب(اللواء الركن):

(٨٨)- قادة فتح العراق والجزيرة، ط٢، دار الفكر، بيروت، سنة ١٩٧٧م.

ثالثًا: كتب مترجمة:

دوزي . ر:

(٨٩) - تاريخ مسلمي إسبانيا، ج١، ترجمة د. حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م

فلهوزن (يوليوس):

(٩٠)- تاريخ الدولة العربية، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٥٨م.

رابعًا: دوريات:

عبد العزيز صالح الهلابي (دكتور):

(٩١) - عبد الله بن سبأ، مجلة حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية ٨، سنة ١٤٠٧-١٤٠٨هـ/ ١٩٨٦- ١٩٨٧م

فهمي عبد الجليل (دكتور):

(٩٢) - فرقة السبئية ونشاطها الهدام في خلافة عثمان وعلي وعلاقاتها بالفرق السياسية في تاريخ الإسلام، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم، مج٧، سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

محمد عبده (الإمام):

(٩٣) – مقال في تفسير قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾، سورة النساء آية (٥٩) "، (مجلة المنار، ج١٢، مجلد ١٣، ص ٣٨٣ – ٣٨٩، عدد الأحد ٣٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ)

* * *